مجلة جامعة الملك سعود، م٣، العمارة والتخطيط، ص ص ٥١ ـ ١١١ الرياض (١٤١١هـ/١٩٩١م)

المبادىء الجوهرية في النسيج العمراني ـ السلوكي الحديث في المستوطنات الصحراوية من المملكة العربية السعودية

محمد العبدالله النويصر

أستاذ مساعد، كلية العمارة والتخطيط، جامعة الملك سعود، الرياض، المملكة العربية السعودية

ملخص البحث. تؤثّر الأنسجة العمرانية المختلفة بدرجات متفاوتة على أنشطة ساكنيها حسب تأثرها بالعادات والتقاليد والبيئة الطبيعية. حيث إن صيغ المستوطنات السعودية وأنظمتها الفراغية تقليديًا تقوم بأدوار معقدة بسبب الحاجة إلى التنسيق بين أهم مبدأين تقليديين/ دينيين وهما الخصوصية والمحافظة على الجيرة والترابط الاجتماعي وفي بيئة قاسية.

لكن المخططات الحديثة متمثلة بعناصرها المختلفة تقوم بإضعاف وعزل الترابط والتعمق المتبادل والمطلوب بين سلوكيات السكان والتصنيفات الفراغية عن طريق خلق أنماط متعددة من العوازل البيئية بين البنية الفراغية وآدائها الوظيفي الجوهري. فالتعبيرات الفراغية الحديثة وأنظمتها قد شاركت في خلق مشكلات عدة انعكست على الأوضاع الاجتماعية والنفسية والصحية والبيئية. لذلك ظهرت بعض الاتجاهات في الأنماط السكنية، كرد فعل لذلك مثال «أحياء الجماعة» و«المجمعات السكنية» و«البلك العائلية».

سيقوم هذا البحث بتحليل بعض مفردات معمارية وأنسجة تخطيطية وتعيين مدى قيام كل منها بأداء دورها الوظيفي والمعنوي في البنية العمرانية. ويدخل في ذلك المسكن والمسجد والمتجر والشارع والحديقة وغيرها.

مقدمة

تقوم المخططات السكنية بأدوار متفاوتة في حياة المجتمعات المختلفة بناءً على بيئتها الطبيعية والاجتماعية والاقتصادية وعاداتها وتقاليدها. فالمستوطنات السعودية تتطلب أن تؤدِّي أعقد

الأدوار لتأوي وتحمي وتحافظ على حياة الإنسان فيها بشمولية مقارنة بالبيئات الأخرى. لذا فهي تحتاج أن تنسق وتنظم وتدعم علاقات السكان الاجتماعية الموجهة بالتعاليم السماوية الإسلامية والعادات والتقاليد التي نبعت من بيئتها الصحراوية والتي تعتبر من أكثر الأنظمة الاجتماعية محافظة وخاصة متطلبات الخصوصية التي تدور حول المرأة وضرورة حمايتها فراغيًا من ناحية الاتصال البصري والصوتي. أيضًا فالمجتمع السعودي بطبعه اتصالي ويحب الاجتماع بالآخرين ولديه روح الجماعة. لذلك يجب على النسيج العمراني الموازنة والتنسيق بين هذين القطبين المهمين في مجتمعنا وهما حماية الخصوصية المحافظة جدًا والرغبة في ربط أواصر التواصل الاجتماعي. كذلك أهمية مقدرة النسيج العمراني على حماية سكانه من قسوة طقس الصحراء من حرارة الشمس والرياح الرملية. حيث تفتقر البيئة الصحراوية السعودية إلى تنوع وتعدد الجمال الطبيعي والجاذبية والمتمثل بالإخضرار والشجر والماء والذي عادة ما يكون عنصرًا مهمًا في سهولة تجميل المستوطنة بطريقة طبيعية وشاملة واقتصادية مما يغطي كثير من القبح الذي يصنعه الإنسان في البيئة وهذا يضيف عبئًا آخرًا على أغلبية مستوطناتنا للتعويض عن ذلك. (شكل ١، ٢). بناءً على هذه الحقائق نجد أن المخططات الحديثة تصطدم بها وتعاكسها وتخلق مشكلات أخرى كثيرة.

أيضًا يجب أن تتجاوب المخططات عن طريق تصنيفاتها الفراغية مع نوعية ساكنيها والذين يختلفون من حيث عاداتهم وأجناسهم وأنشطتهم اليومية. فمثلاً سكان المدينة غالبًا يرتبطون بحياة أكثر انشغالاً وتعقيدًا وأعلى ثقافة وأكثر شبابًا وأقل اجتماعًا بينما في القرى الغالبية أطفال ونساء وكبار سن اجتماعهم كثير لقلة فرص العمل وبساطة الحياة. كذلك بعض سكان المخططات متشابهين في الخلفية وأسلوب الحياة بينما آخرين يختلفون في كثير من النواحي مما يتطلب تخطيطًا مختلفًا لسكان المجموعتين.

شجع التغير الاقتصادي في المملكة ابتداءً من ١٣٩٣هـ (١٩٧٤م) على حدوث أكثف وأسرع تحضر وتغير عرف في تاريخ البشرية جمعاء وصاحب خلال هذه الفترة انتقال جماعي من المساكن التقليدية إلى منازل ومخططات حديثة. ساعد هذا التغير على استيراد عدة أنواع من منتوجات السوق العالمية بما في ذلك فكرة المخططات الحديثة وعناصرها

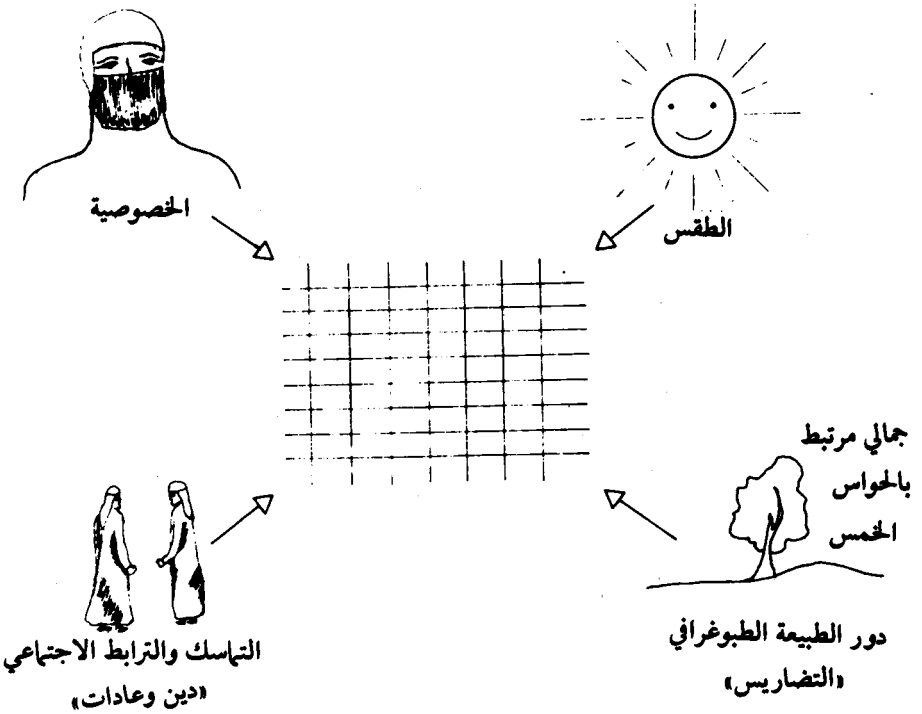

شكل ١. تقوم المستوطنات السكنية في بيئة المملكة الصحراوية بعبء كبير في حماية حياة ساكنيها مقارنة بالبيئات والمجتمعات الأخرى. فالبيئة الصحراوية تحاول أن توفق بين الخصوصية المحافظة جدًا والتواصل الاجتماعي والحماية الطقسية والتعويض عن الجمال الطبيعي المفقود كما في التشجير.

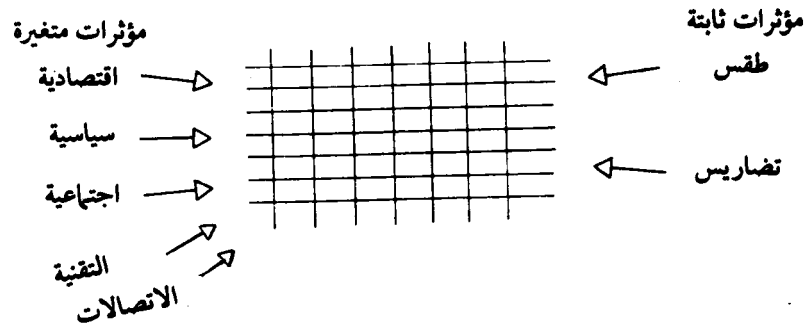

شكل ٢. يتأثر النسيج العمراني غالبًا بخمسة عناصر، عناصر ثابتة وهي الطقس والتضاريس ومتحركة وهي الاقتصاد والسياسة والاجتماع.

المعمارية وانتشارها. حيث خلق هذا التحول الفجائي فجوة بين الظروف المعيشية الجديدة وتطلعات السكان وبين المساكن التقليدية مما هيأ لانتشار المساكن والمخططات الحديثة وذلك بانتقال ما يقارب ٧٠٪ من سكان المملكة من المناطق التقليدية إلى الحديثة. أحدث طبيعة هذا التحول بما في ذلك وضع الاختلاف الكبير بين البيئتين علامة وسمة فارقة في حياة السكان وأثر في العلاقات الاجتماعية وسلوكيات المجتمع بشكل عام.

العمران هو إفرازات وتعبير عن العناصر المسيطرة في كل زمان ومكان. فمثلاً في الماضي كان النسيج الاجتماعي المترابط والاعتماد على الطبيعة المحيطة (في المعيشة والخدمات) هي التي وجهت النسيج العمراني التقليدي المتشابك، بينما في الوقت الحاضر هيمن العنصر الاقتصادي/ الوسيلي في جلب منتوجات وخدمات ومفاهيم جديدة وجعل المنازل مستقلة عن بعضها باعتمادها على الخدمات العامة واستعمال تقنيات حديثة في مواد وأنظمة البناء والتخطيط وبغياب الضوابط العمرانية الملائمة لم يكن ممكنًا التحكم في طرازها وانتشارها. بعبارة أخرى العمران دائمًا يتأثر بستة عناصر رئيسة ثابتة مثال المناخ والتضاريس ومتحركة (متغيرة) مثال الاقتصاد والسياسة والعادات الاجتماعية والتقنية. (شكل ٢).

لقد عملت حدة الطفرة وارتفاع الدخل واندفاع الخدمات والتسهيلات الإسكانية (الصندوق العقاري ومشاريع الإسكان) والاتصال الخارجي وعدم تطوير السكن التقليدي وتطور مواد وخدمات البناء على ظهور ازدواجية في الحياة اليومية بما في ذلك البيئة السكنية. فمثلاً نجد التباين الفراغي الحاد ابتداءً من داخل السكن بانقسام المنزل بين فراغات وأثاث عربي وغربي وإلى أحياء قديمة جدًا وحديثة جدًا وأسواق شرقية وغربية وكذلك الحال في العناصر الأخرى من مطاعم وملاهي وأشياء أخرى كاستخدام التاريخ الهجري والميلادي (شكل ٣).

المنزل المثالي جزء لايتجزأ من بقية الحي والمستوطنة ولابد أن يرتبط بنظام فراغي/ وظيفي لتدعيم علاقة سكنية فراغية بالجيران والخدمات الأخرى كالمسجد والمدرسة والمتجر والحديقة.. إلخ، فتوجيه المسكن وربطه مع المساكن الأخرى لاتقل أهمية عن تصميم داخل السكن للمحافظة على علاقة طبيعية مع الجيران.

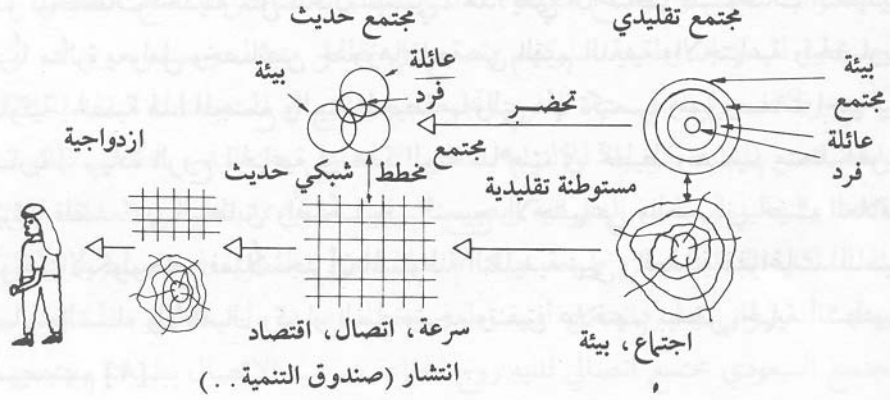

شكل ٣ . لقد عملت حدة وسرعة وكثافة التغير الاقتصادي إلى حدوث ازدواجية في أوجه الحياة المختلفة من جراء التنافس أو التحالف أحيانًا بين التعبيرات التقليدية المحلية والأجنبية المستوردة والمتمثلة بسلع السوق العالمية بما في ذلك البيئات السكنية .

تمر الأحياء التقليدية كذلك في وضع مأساوي حيث إنها أصبحت تجرح وتدمر وتزال بإسم التطور والبحث عن ربح وفير ومكانة عالية والاندفاع والانبهار وراء الجديد والتقليد.

أسس عمرانية محلية

لقد عاش المجتمع السعودي طبقًا لنظم وعادات اجتماعية تكونت وتطورت عبر أجيال مختلفة بناءً على خبرة إنسانية متوارثة من حصيلة اجتهادات ومن تجارب مشتركة ذاتية بناءً على الإحساس الفطري بالاحتياج والوعي البيئي والاجتماعي مما خلق شمولية التفكير وبناءً على توجيه عقائدي ممتزج بالظروف البيئية. هذا التواتر والاستمرارية انعكس على سبل حياة الناس بما في ذلك البيئة السكنية والتي تعبر عن مقدرات الإنسان هنا في خلق البيئة المناسبة لظروفه المعيشية.

لتعميق فهم خصائص النمط العمراني وتمايزه في البيئة السكنية وتقويم المخططات الحديثة لابدَّ من تفهم نسيج وعناصر المستوطنات التقليدية التي توحي بالمكان الجوهري بينما عناصر المخططات الحديثة تمثل المكان الوسيلي. هذا يعني أن عناصر المستوطنات التقليدية جوهريًا متأثرة بعوامل وخصائص جذورها نابعة من القيم الدينية والاجتماعية والحضارية والسلوكية الخصبة لهذا المجتمع والبيئة المحيطة بها والتي منها تكتسب رموز وصفات اجتماعية وحضارية. سيادة الروح الجماعية في هذه البيئة ساهمت في تخطيط وتصميم متحد الهوية المتميزة. فلقد كان التطابق واضحًا بين النسيج الاجتماعي والعمراني حيث العلاقة الفطرية/ الأيكولوجية. فمثلاً نجد أن المستوطنة التقليدية تهيء العدالة للفراغات المناسبة للرجال والنساء والأطفال وكبار السن وتوجه وتنسق علاقتهم ببعض لحماية أنشطتهم وخصوصيتهم [١].

ترتبط النسج العمرانية التقليدية بالسلوك الفطري للإنسان وطبيعة علاقته بالآخرين وانتماءه البيئي. لذلك كثيرًا من المستوطنات التقليدية في المملكة تعبر عن هذه العلاقة بتهيئة فراغات تدريجية ابتداءً من داخل المنزل الخاص جدًّا إلى وسط المستوطنة العام جدًّا. حيث

يعكس المسكن التقليدي التوازن المطلوب بين الخصوصية لأصحاب المنزل والعمومية/ الاتصالية مع بقية السكان. فمثلاً السكن عادة موجه إلى الداخل حول الفناء لحماية خصوصية المرأة وإعطائها الراحة والحرية في التخلص من مراقبة الآخرين، وكذلك بالتحرك إلى الخارج نجد مدخل النساء يشكل مع المداخل الأخرى للجيران فراغًا شبه خاص حول شارع غير نافذ لتجمع نساء الحي ومراقبة الأطفال خلال اللعب. أيضًا مجلس الرجال عادة يكون عنصرًا بارزًا للجيران من حيث انفتاحه إلى الخارج وحجمه وموقعه وتجميله مما يشكل رمزًا للكرم ودعوة حسية إلى اللقاء مع الجيران. يوجد داخل المجلس الأوجار والكمر والمبار والدلال والأباريق والتي بتكوينها للرمز عن الكرم، وزخارف تعبر عن ارتباط الإنسان بعناصر البيئة المهيمنة على حياته في ذلك الوقت مثال النخلة مصدر غذائه ومواد بناء منزله والإلهية متمثلة بآياته سبحانه كالقمر والنجوم وهذه تحمل دلالات تاريخية واجتماعية ودينية وبيئية. بالتحرك تدريجيًا إلى مستوى الحي نجد عناصر لقاء وارتباط عفوي مثال فناء الحي والمسجد ومتجر وغيرها وهذه تؤصِّر الروابط بين سكان المجاورات. كذلك جميع السكان يرتبطون اجتماعيًا ودينيًا في مركز المستوطنة حيث السوق المركزي والمسجد الجامع. فالسوق التقليدي يعتبر هو المكان الاجتماعي والترفيهي والثقافي والحضاري الذي يطلع فيه السكان على أحوال البعض والأوضاع العامة. لذلك تلتصق خصائص النسيج العمراني بالقيم الاجتماعية للسكان وطبيعة سلوكهم وتصبح في تفاعل متبادل ومستمر، ويدعم النظام الفراغي وظائف مرتبطة في حياة الأفراد وتجمعاتهم ويشيع في المستوطنات التقليدية الالتزام في الخصائص المجردة كوسيلة للالتزام بالنظام الاجتماعي والتقاليد. بناءً على ذلك تمتزج العادات والتقاليد في البيئة العمرانية ويصبح السلوك عفويًا مما يقلل من المعاناة. لذا تعبر البيئة السكنية التقليدية عن طبيعة حياة الإنسان العربي الفطرية في الصحراء متمثلة في نسيجها العمراني ومفرداته من أفنية وطرق مغطاة وضيقة وأحيانًا غير نافذة ومتعرجة. فالمجتمع السعودي مجتمع اتصالي لديه روح الجماعة ويرغب الاتصال بطبيعته وبتحفيز من الدين الإسلامي الذي يركز على أهمية ذلك وهذا بعكس المجتمع الغربي الذي تسيطر عليه روح الفردية والإنعزال (أشكال ٤، ٥، ٦) [١].

يركز النسيج العمراني الشبكي الحديث على العامل الوسيلي/ الوظيفي والتعبير الانفرادي لعناصره مما يجعله يخالف المبادىء الفطرية للمجتمع السعودي. لذا فالمخطط

فناء

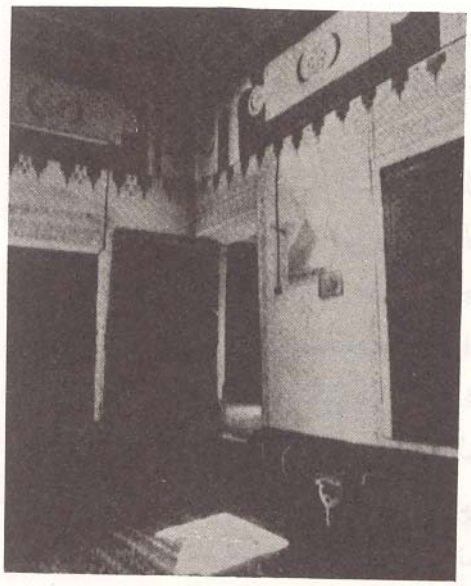

مجلس ضيوف

المستوطنة التقليدية

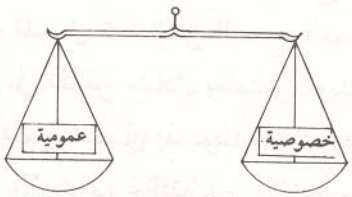

- حماية حرمة المرأة (فناء، فتحات)
- فراغات خارجية خاصة ومحمية (سد، ساحة، مدخل نسائي)

- توجيه الاتصال مع الجيران (مجلس الضيوف وانفتاحه على الجيران
- الأبواب.
- شمولية.

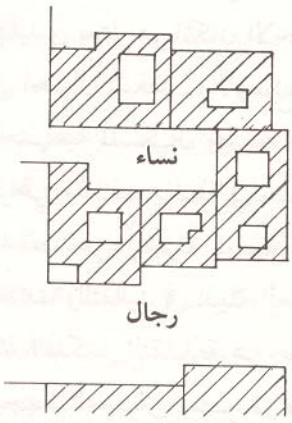

شكل ٤. يقوم المنزل التقليدي الصحراوي في المملكة بدور جوهري في حياة الإنسان حيث إنه يوازن بين الخصوصية والعمومية. فنجد أن الفناء المنزلي وباب النساء والشارع المسدود تدعم خصوصية المرأة بينما مجلس الضيوف وانفتاحه على شارع الجيرة يشجع على التواصل بين الجيران.

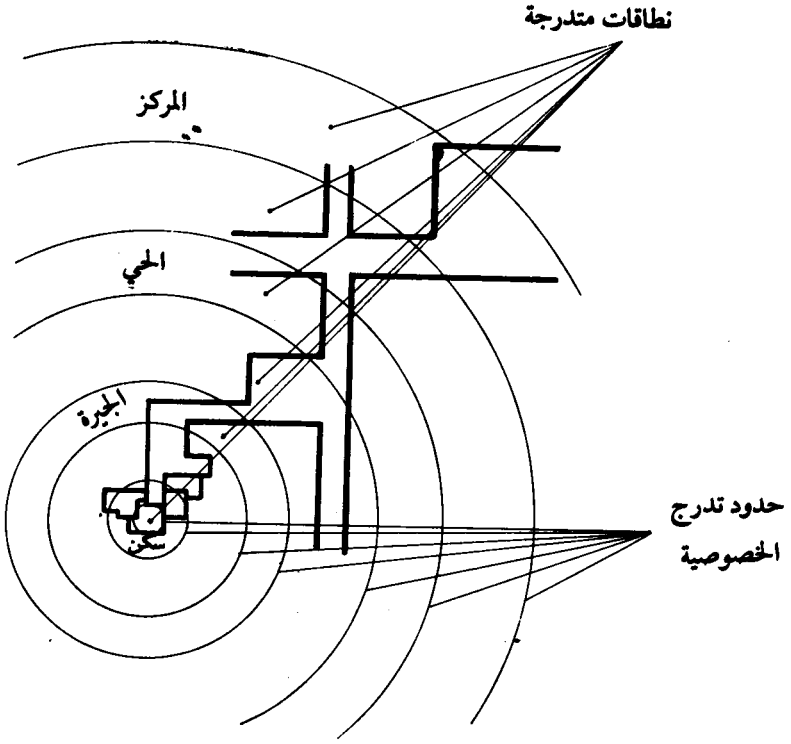

شكل ٥ . توضيح تجريدي للنظام الفراغي ـ السلوكي الموجود في المخططات التقليدية وتصنيفه بطريقة التنسيق بين الخصوصية والعمومية من خلال نطاقات متدرجة حسب نوعية المستخدمين والاستخدام من عائلة إلى جيرة وحي (أيضًا انظر شكل ٤) . كذلك الصورة الأخرى توضح أنه لايوجد أي نوع من التنسيق في البيئة الحديثة بين الخاص والعام وهما المنزل والشارع .

الشبكي ضعيف العلاقة مع مستخدميه حيث إنهم غير مرتبطين به عاطفيًّا ومعنويًّا إنما استخدامه كوسيلة في تحقيق أنشطة للاستمتاع بالمنافع الاقتصادية والخدمات الجسمانية وتدعيم الاتجاهات المادية والعادات الاستهلاكية . لذا فالبيئة الحديثة تضع عوائق تعيق التفاعل بين الإنسان ومحيطه وتحد من تكوين الروابط الإنسانية الاجتماعية [١] .

قرية الفاو، السعودية

المصدر:
كلية التربية جامعة الملك سعود

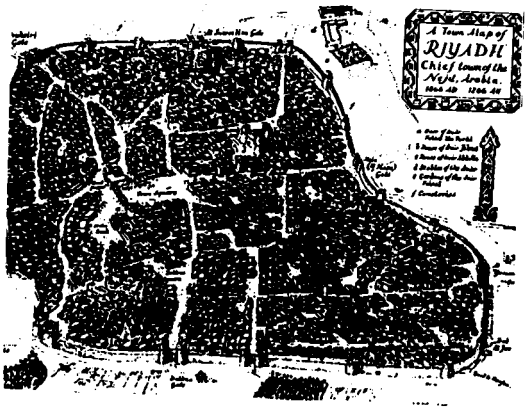

مدينة الرياض

المصدر: أمانة مدينة الرياض

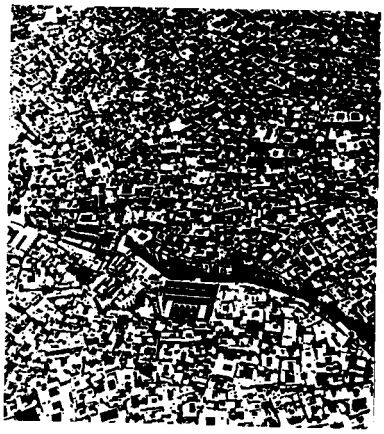

مدينة فاس، المغرب

المصدر: بلدية فاس

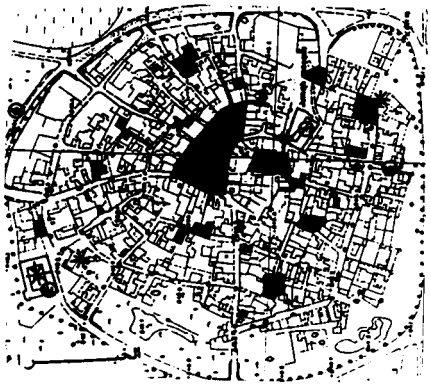

قرية الخبراء، السعودية

المصدر: بلدية الخبراء

شكل ٦. يعبر النسيج التقليدي العمراني عن طبيعة الإنسان عندما يكون له الحرية في التعبير الفراغي عن احتياجاته واهتماماته الشخصية والمشتركة. فنلاحظ من مخططات قرية الفاو والرياض والخبراء من السعودية وفاس من المغرب أنها تعكس طبيعة الإنسان وعمق العلاقة لدرجة أنها توحي ببصماته ورموزه المعنوية. تنظيم هذه المخططات الفطري بشكل فراغي - سلوكي تدرجي من الخاص إلى العام مع التوجيه النطاقي، يحافظ على التوازن الأيكلوجي للإنسان.

لقد ابتعدنا عن العادات والتقاليد ابتداءً من فترة الطفرة الاقتصادية حيث نجد أن أغلبية النـاس غيروا من أوجـه حياتهم التقليدية مثال المسكن والمأكل وأسماء الأشخاص وطريقة الاتصالات وغيرها. هذه استبدلت بالطرق الغربية والتي لن تدوم طويلاً حيث إنه خلال السنـوات الأخـيرة بدأت تظهـر بوادر العـودة إلى طريقة الحياة الأصيلة التقليدية وتطويرها بطريقة عصرية مثال ظهور الطابع المحلي ومدى انعكاسات مهرجان الجنادرية السنوي في إحياء التراث الحضاري في جميع مناطق المملكة. فمثلاً الطابع العمراني الشبكي الحديث كان مجرد تغير وتدخل مؤقت وشاذ في عملية مجريات ومسيرة النمو العمراني الطبيعي والتقليدي الـذي توقف وسيكـون هنـاك عودة إلى استمـراريته وتطويره وسيعود التعايش والترابط بين الإنسان السعودي وبيئته المبنية ورفع مستوى خدمته له بدلاً من خلق العوائق والمعـاناة له. لذا سنتطرق إلى هذا الموضوع بشكل أكثر تفصيلاً تحت عنوان لاحق عن الاتجاهات العمرانية الحديثة.

لقد أثبتت كثير من الدراسات في التصميم البيئي أن للبيئة المبنية تأثيراً قويًا على سلوك الإنسان وأنشطته وصحته النفسية والجسمية [٢ ، ٣]. غالبية هذه الدراسات في المباني مثال المساكن والمكاتب والمدارس وغيرها لكن بحثنا هذا سيكون امتدادًا لدراسات سابقة على مدى تأثير طبيعة المخططات السكنية على أنشطة ساكنيها وعلاقاتهم [١ ، ٤].

تقليديًا يعتقد المنظرون المعماريون والمخططون أن البيئة المبنية هي الوسيلة التي تؤثِّر وتشكـل السلوك الإنساني. لكن هذا الاعتقاد في الدكتاتورية الفراغية على توجيه نشاط الإنسان قد قوبل في السنوات الأخيرة بالتحدي من قبل كثير من الباحثين بناءً على دراسات ميدانية وتحليلات نظرية جديدة. فلقد أثبتت هذه البحوث أن السلوك الإنساني في البيئة المبنية ليست بالبساطة من أن تكون وظيفة فراغية، إنما العلاقة بين الإنسان والبيئة معقدة جدًا وأحيانًا غامضة لتعرضها لمؤثرات كثيرة ومتغيرة [٥ ـ ١٠]. من أهم المؤثرات، العناصر الاقتصادية والاجتماعية والعادات والتقاليد والمعتقدات الدينية وحوافز دورة حياة الإنسان الأيكلوجية. لكن يبقى أن للبيئة المبنية دور كبير في التأثير على نوعية وأنواع وكمية أنشطة الإنسـان الفراغية بحيث أن فراغاتها تشكل المسرح والمحيط الذي تترعرع وتتشكل فيها سلوكيات إنسانية مختلفة وتنسق بين التأثيرات الكثيرة والمعقدة المرتبطة بحياة الإنسان ونموه.

ستركز هذه الدراسة على مدى تأثير النسيج العمراني الشبكي الحديث وأهم عناصره الـرئيسـة وهي المنـزل والشـارع السكني العائلي على سلوكيات وأنشطة ساكنيه في البيئة الصحراوية في المملكة. لذا تجدر الإشارة هنا أن تأثير البيئة السكنية على السلوك موضوع معقد وتشارك فيه عوامل أخرى مثل العادات والتقاليد والاقتصاد ونظم الاتصال وظواهر التغير وغيرها والتي لن نتطرق لها، ليس لعدم أهميتها لكن لبعدها عن أهدافنا هنا وهي الـتركيز على التحليل المعماري والعمراني. كذلك بقية مكونات هذه الدراسة بإمكانها أن تكون مواضيع بحث مستقلة مثال الطابع العالمي و«البلكات العائلية» و«الجيوب السكنية» والاتجاهات الحديثة في النسيج العمراني في المملكة.

لذا سنقوم باستعراض بعض نواحي المخططات الحديثة بما في ذلك نشأتها وظهورها في المملكة وأهدافها وتحليل التأثير السلوكي لصيغها وعناصرها كما في المنزل والشارع وبعد ذلك إبراز المؤشرات والاتجاهات الحديثة في البيئة السكنية ومن ثم استنتاج وتحديد مشكلاتها وعوائقها والأهداف السكنية المثالية وإيجاد الحلول البديلة من البيئات التقليدية السعودية أو من مشاريع حديثة أخرى. حيث ستتبع المسوحات الميدانية وربطها بمبادىء محلية وأسس نظرية.

نشأة العمران العالمي الحديث

لقد عملت الثورة الصناعية الأوروبية واكتشاف مصادر جديدة للطاقة وتطور التقنية إلى توسع الإنسان في استغلال بيئته المحيطة به لرفع مستوى معيشته. هذا الوضع بدوره خلق الاحتياج للتغير الحتمي في الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية والسياسية. لذا بطبيعة الحال كان من أهم متطلبات هذه الحقبة من الزمن مواكبة النسيج العمراني لهذه المتغيرات. فمن جراء انتشـار تأثير هذه الظروف عالميًا هيأ الأحوال المحلية إلى الانفتاح على بعضها واتصالها بحيث تصب غالبًا في قالب عالمي واحد (غربي) عبر هيمنة سيطرة المفاهيم من هذه البيئـات، مما شجـع على ظهـور نسيج ومفـردات عمـرانية جديدة أطلق عليه (العمران

العالمي). هذا الانفتاح هيأ دول العالم الثالث لقابلية هذا الطابع العمراني الجديد وانتشاره بدرجات وبصور متفاوتة بناءً على الوضع الاقتصادي والسياسي لهذه البلدان.

لقد كان أول ظهور الطراز العمراني العالمي في أوروبا وخاصة في ألمانيا بعد الحرب العالمية الأولى والثانية عندما دمرت كثير من المدن وأصبحت الحاجة ماسة في إيجاد سكن عاجل لأعداد كبيرة من السكان فبدأ البحث عن بديل عن الطريقة التقليدية والتي تستغرق وقتًا طويلاً ومكلفة. لذا ظهرت مبادىء عمارة عالمية جديدة نبعت من مدرسة الباوهاوس (Bauhaus) في ألمانيا [١١]. أعلن عن مبادىء هذا الطابع العمراني في ذلك الوقت إنها تركز على الحيز والفراغ بدلاً من الكتلة والصلابة وعلى البساطة الاعتيادية بدلاً من التكرار والتشابه والتكلف ويعتمد على خواص المواد الوظيفية والقابلة لخواص التقنية والمقاييس الدقيقة بدلاً من التكلفة على الزخارف والمجسمات الجمالية [١٢]. أيضًا أضاف قروبيوس [١٢] إن هذا الطابع يعبر عن الوظيفة والوضع الاقتصادي بدلاً من الناحية العرقية والعادات والتقاليد. كذلك يعتبر النسيج العمراني العالمي الحديث امتدادًا لنفس المبادىء المعمارية السابق ذكرها حيث إنه يركز على الوظيفية. استمرارًا لنفس الفلسفة تمددت الفكرة عن طريق مجموعة (CIAM) الأوروبية التخطيطية إلى ظهور مستوطنات متكاملة سميت المدن الجديدة (New towns) والتي تخدم كمتنفس للمدن المزدحمة لاستيعاب الاحتياج السكني كما في بريطانيا وغيرها أو سياسية كما في برازيليا في البرازيل وشندقار في الهند أو صناعية كما في الجبيل وينبع في السعودية وأرقاين في أمريكا.

لذا بدأ منذ ذلك الحين هذا الطابع المعماري والنسيج العمراني يغزو العالم الثالث بطرق متعددة كما هو عن طريق الاستعمار والتحضر والارتباط وتحسن الأوضاع الاقتصادية والاعتماد على السوق العالمية. بعض علماء التخطيط المتخصصون في علم التخطيط يعزون سرعة انتشار العمران العالمي إلى ارتباط واعتماد هذه المجتمعات على النظم الاقتصادية في الدول الرأسمالية كجزء من سياسة التبعية لهذه الدول. حيث إن انتقال هذه الأفكار العمرانية من ألمانيا إلى بقية العالم اتخذت صبغات متعددة طبقًا لمفهوم ناقليها وأهدافهم بما فيها السيىء والحسن. فمثلاً بعض المستعمرين في أفريقيا وجنوب أمريكا استبدلوا

المستوطنات القديمة التي تدعم الربط الجماعي والوطنية بمخططات حديثة لتفكيك المجتمع وتحويله إلى أفراد متفرقة للقضاء على الاتصال بينهم وتحويلهم إلى أدوات إنتاج اقتصادي يدعم نظام السوق الغربي [١٣، ١٤].

تعتمد أغلبية المخططات والمدن الحديثة في تصميمها وتخطيطها على نظم ومعايير عمرانية غربية الأصول والتي عادة أقرب ما يكون منسجمًا مع بيئة وعادات وتقاليد تلك الشعوب. فمن الملاحظ أن المخططات العمرانية في بلدان العالم الثالث تشترك في بعض الصفات مثل نظم البناء واستعمالات الأراضي ونظم التحكم بها وأنظمة الحركة وتقسيمات الأراضي والتي تتمثل في الصيغ الشبكية وشوارع واسعة ومستقيمة وهيمنة حركة السيارات وتكرار وتطابق الطابع العمراني.

ظهور المخططات الحديثة بالمملكة

كان أول ظهور العمران الحديث في المملكة العربية السعودية عن طريق الوافدين الأجانب من شركات التنقيب عن البترول مثال شركة أرامكو، بسبب عدم وجود مناطق سكنية في أماكن التنقيب وكذلك رغبة هؤلاء الوافدين في إيجاد مساكن لهم تشابه البيئات التي قدموا منها. لذلك كان أول منشأة سكنية حديثة شيدت بعد اكتشاف البترول عام ١٩٣٨م (١٣٥٩هـ)، حيث تم بناء كامب في منطقة الظهران وبعد ثلاث سنوات بني كامب سكني آخر في منطقة رأس تنورة. بعد ذلك قررت شركة أرامكو أن تطور هذين المشروعين ليصبحا مستوطنتين لإسكان جميع العاملين لديها من موظفين وعمال أجانب وسعوديين بحيث تحوي على جميع الورش والخدمات وسبل الترفيه وأخذت أسماءهما من مواقعهما وهما الظهران ورأس تنورة. هاتان المستوطنتان استوعبتا ما يقارب ٢٢٠٠٠ حتى سنة ١٣٨٩هـ (سنة ١٩٦٨م). في سنة ١٣٦٦هـ تم التنسيق بين حكومة المملكة ممثلة في إمارة المنطقة الشرقية وشركة أرامكو لإنشاء أول مستوطنة حديثة شاملة هي مخطط الخبر الذي ابتدأ ليخدم كميناء للشحن. لذا قام مساحو الشركة بتخطيط الخبر بشكل شبكي ومساكن معزولة عن بعضها البعض بشوارع واسعة لسهولة حركة السيارات بحيث

أصبحت مساحة الشوارع تشكل ٥٥٪ من المساحة الكلية وأصبح عدد سكان هذه المدينة يقارب ٢٥٠٠٠ نسمة في سنة ١٣٧٢هـ. من الواضح أن نسيج مدينة الخبر غير متجاوب مع البيئة الطبيعية للمنطقة حيث إن سعة واعتدال الشوارع سهلة من حيث سرعة وكثافة الرياح الرملية [١٥].

منذ ذلك الحين بدأ ينتشر الطابع العمراني العالمي الجديد ببطء في بعض مدن المملكة الكبيرة خاصة في المشروعات الحكومية من مبانٍ مكتبية عامة أو مشروعات سكنية مثال حي الملز بالرياض. بعد ذلك بدأ بعض المواطنين من القطاع الخاص بالانجذاب إلى هذه الفكرة وخاصة ذوي الدخول العالية حيث بدأت ظاهرة بناء المساكن الأسمنتية الفردية الحديثة التي تسمى «البيت الشعبي» وبعض الفلل. استمر هذا الوضع حتى سنة ١٣٩٤هـ تقريبًا. عند ذلك الوقت بدأت فترة ما سمي «بالطفرة الاقتصادية» والتي صوحبت بارتفاع كبير بالدخل الاقتصادي للسكان وتدفق المشروعات الحكومية من خلال الخطط الخمسية في المجالات الصحية والثقافية والاقتصادية والاتصالات والتي ترجمت بمخططات جديدة وبرامج إقراض سكنية عن طريق «صندوق التنمية العقارية». هذا ساعد على انتشار المساكن والمخططات الحديثة في المدن والقرى والهجر بشكل سريع وكثيف، وشجع ذلك عدم مقدرة العمران التقليدي على مواكبة التغيرات الاقتصادية والاجتماعية الهائلة والتي هيأت المجتمع للبحث عن أي بديل جاهز.

انتقلت فكرة «الباوهاوس» المعمارية و (CIAM) التخطيطية إلى المملكة حسب مفهوم ناقليها من شركات التنقيب عن النفط ومهندسين وافدين حيث وصلت إلى هذه البلاد بصيغة مغلوطة ورخيصة فقدت أثناء النقل أهدافها فأصبحت أسوأ من المبادىء التي نادى بها روادها والتي بحد ذاتها لاتتناسب مع هذه البيئة. كذلك ضلل هؤلاء المهندسون السكان المحليين بالاندفاع بهذا الاتجاه مما ساعد على انتشار أكثر الأنظمة المطبقة والتي تسببت في مشكلات اجتماعية وبيئية وصحية كثيرة في المملكة وهي نظام الارتداد والذي أساسًا وجد في نظم البناء الإنجليزية لعزل بعضها عن بعض، ففي حالة حدوث حريق في أحدها يعزل عن البقية لمنع انتقال النار وإعطاء فرصة أفضل للتهوية والإضاءة.

هذا الاتجاه أحدث ازدواجية في البيئة السكنية بين العمران المحلي التقليدي والمستورد الغربي والتي تتمثل في أغلبية مدن وقرى المملكة مما أثَّر على طبيعة السلوك الاجتماعي [١، ٤].

لو قارنا بين تأثير العناصر الفراغية في كل من المخططات ذات النسيج الشبكي الحديثة العالمية والمستوطنات التقليدية لوجدنا تأثيرًا واضحًا بحيث يكون سلبيًّا في الأولى وإيجابيًّا في الثانية. فمثلاً نجد أن العناصر في الشبكي العالمي غالبًا وظيفية وسريعة، وبدون تعمق حيث إن الشارع للمرور فقط والمسجد لأداء الصلاة والمتجر للشراء وغيرها. بينما في التقليدي يضاف معاني أخرى إلى هذه الوظائف من جراء تصنيفاتها الفراغية والعناصر المحيطة بها ونظمها فمثلاً تشجع المستخدمين على الشعور بالروحانية والطمأنينة في المسجد وإعطاء الفرصة للمصلين في التواصل والسلام بعد الصلاة. كذلك الشارع بالإضافة إلى كونه ممرًا فهو يعطي الفرصة لأنشطة أخرى كالتجمع واللعب والجلوس وغيرها. لذا فعناصر المستوطنات التقليدية تكون مصدرًا لسلوكيات إنسانية ذات معنى مهم في حياة سكانها حيث إن أغلبية هذه العناصر مثال المتجر وغيرها تعتبر أماكن لقاءات اجتماعية ومصادر تسلية وتبادل معلومات وتعلم وغيرها. هذا يثبت لنا مدى أهمية التنظيم الفراغي في حياة السكان اليومية وتأثيره على المدى البعيد. بعض الفرص الفراغية التي توجد في النسيج التقليدي موجودة الآن في بعض المخططات السكنية الحديثة الخاصة بشكل آخر والتي سنتطرق إليها فيما بعد في موضوع «جيوب سكنية عامة» وأمثلة أخرى.

النسيج العمراني السعودي الحديث

يتصف النسيج العمراني الحديث بسعة الشوارع واستقامتها وتعامدها وبمبانيها «الصندوقية» الأسمنتية المنفصلة والمحاطة بارتدادات من جميع الجوانب وبأسوار كنكريتية مرتفعة وهيمنة حركة مرور السيارات غالبًا على جميع الفراغات الخارجية. طبيعة تكوين المباني وسعة عروض الشوارع بالنسبة لارتفاع المباني عليها والمواد المكونة لها من أسمنت وحديد وأسفلت يجعلها تتعرض لأشعة الشمس مدة طويلة خلال اليوم مع تخزين كمية كبيرة

من الحرارة مما يسبب الإزعاج والمضايقة عند استخدام هذه الفراغات وتنفير حدوث الأنشطة فيها. كذلك نظم تصميم المنازل عملت على عزلها اجتماعيًّا عن بعضها البعض بتطويل المسافات بينها عن طريق الارتدادات والأسوار العالية وتوجيه الفتحات فيما بينها بحيث تتعدى على الخصوصية للغرف الداخلية والفراغات الخارجية لكل منها. أيضًا ارتدادات المنازل وفتحات شبابيكها التي غالبًا ما تكون مغلقة تكون بيئة، مظلمة، كئيبة وغير صحية لعدم المقدرة في حرية فتحها للحصول على الضوء والهواء بسبب مشكلة الخصوصية والتي في السابق اعتمدت على استخدام الفناء الداخلي وأحيانًا الفتحات والملاقف الهوائية المرتفعة. وجود هذه الصفات العازلة دعمت طبيعة توجيه وتهيئة الفراغات الخارجية لحركة مرور السيارات بالإضافة إلى عدم وجود أي فراغات خارجية للاتصالات الاجتماعية ونواحي أخرى ستذكر فيما بعد شكلت مؤثرًا قويًّا في العزل الاجتماعي في الأحياء الحديثة وضعف الاتصالات. هذا شجع على الشقاق والفرقة بين الجيران وخلو شوارعها من لقاء وتجمعات السكان من أطفال ورجال ونساء وكبار السن وهذا بدوره جعلها بيئة جذابة لحدوث الجريمة (شكل ٧).

تعمل كثير من نظم استعمالات الأراضي على إضعاف العنصر الاجتماعي وعدم التكافل بين أبناء الجيرة الواحدة. فبالإضافة إلى ما ذكر حول نظم الاستخدامات السكنية نرى دائمًا توجيه الاستخدام التجاري والخدمات الاستهلاكية الأخرى على المسارات الشريانية للسيارات مما يوجه حركة سكان الحي باتجاهات متفرقة إلى خارج الحي مع استخدام السيارة. هذا يجعل العملية مرتبطة باستخدام السيارة مما يزيد من حركة المرور والإزعاج وكذلك عدم إمكانية بقية الأسرة مثل ربة المنزل أو الأطفال من المشاركة في اللوازم اليومية. أيضًا يفتقر العنصر التجاري دوره في خلق فرص اللقاء بين أبناء الحي في حالة وجوده في نقطة لقاء مركزية، لكن الوضع الراهن يجعله عنصرًا وظيفيًّا لعامة الناس العابرين، مع هذه الخطوط الشريانية ومقتصرًا على الرجال. لذا فالتوجيه الداخلي للعنصر التجاري بحيث يكون في مركز الحي أفضل بكثير من توجيهه للخارج على الحدود ما عدا بعض العناصر التي لاترتبط باحتياجات سكان الحي اليومية أو الأسبوعية (شكل ٨).

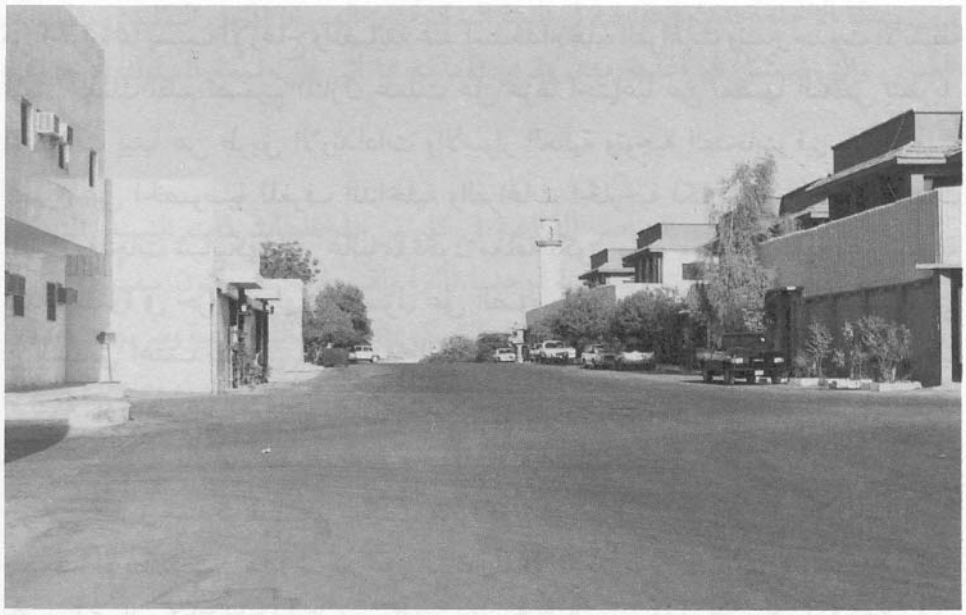

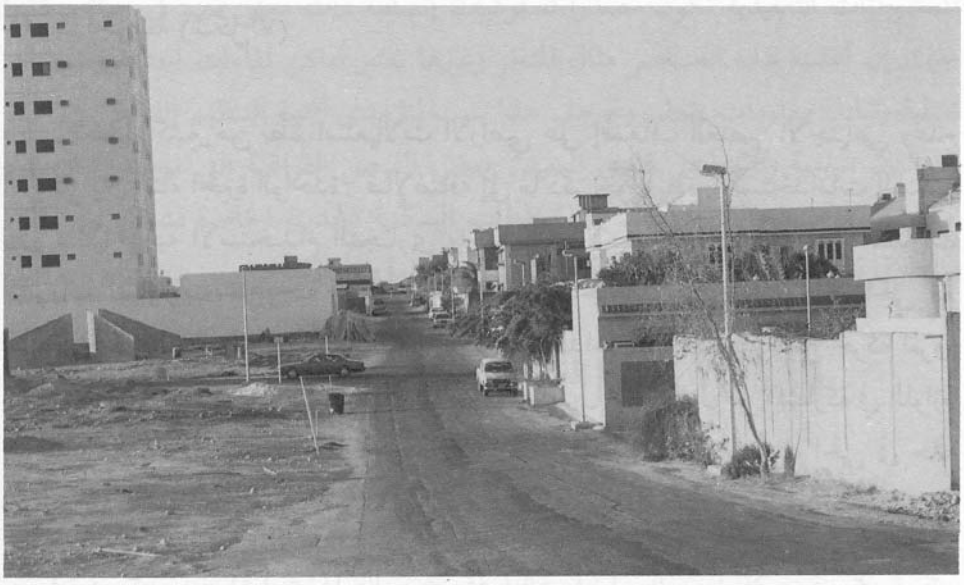

شكل ٧. أمثلة أخرى على انتشار مشكلة الخصوصية حيث نرى في الشكل العلوي أن كل المساكن رفعت من حوائطها بينما في الشكل السفلي العمائر المرتفعة تهدد خصوصية عدد كبير من المساكن.

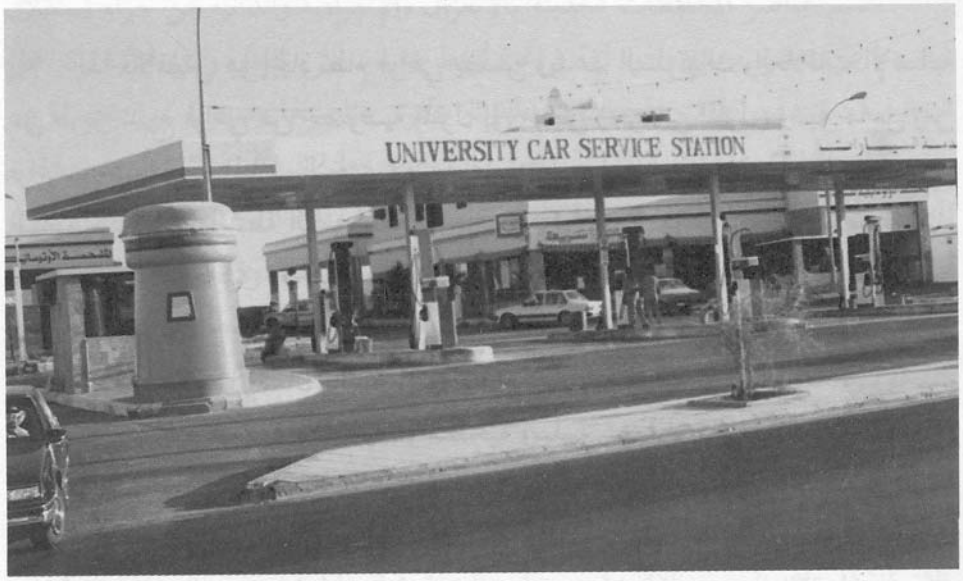

شكل ٨. لقد انتشرت ظاهرة توجيه أغلبية الخدمات للسيارات من بقالات ومطاعم ومتاجر وخدمات أخرى. هذه العناصر الجديدة بالإضافة إلى رموز عمرانية جديدة، أثرت في مفاهيم السكان البيئية.

تفتقر المخططات الحديثة إلى التوازن والتدرج المطلوب بين المكان الخاص جدًّا وهو المنزل والمكان العام وخاصة في بيئتنا العربية / الإسلامية والتي من أهم صفاتها التدرج في الخصوصية والنطاقية الفراغية. لذا نجد أن البيئة السكنية الحديثة تتكون من عنصرين فراغيين وهما العنصر الخاص جدًّا والمغلق والمنعزل وهو المنزل والعنصر الآخر العام جدًّا والمفتوح للجميع وهو الشارع العام مع عدم وجود أي علاقة وظيفية أو فراغية بينهما، مع تكرار ذلك في شوارع مستقيمة وعليها مساكن مكررة ومتكلفة ومملة وبدون شخصية ذات معنى مميز. هذا الفصل الحاد بين الخاص والعام خلق إحساسًا لدى السكان لتركيز جميع جهودهم داخل المنزل وقطع علاقتهم بالخارج وعدم الشعور بالمسؤولية تجاه الفراغات الخارجية. فالحد الفاصل بين هذين العنصرين هو السور الأسمنتي المرتفع فقط والذي يحدد الشوارع وتقاطعاتها مما يسبب مخاطر مرورية كثيرة لعدم وجود اتصال بصري مناسب لرؤية الحركة المتقاطعة ويجذب الإزعاج لكثرة استخدام المنبه عند هذه التقاطعات لتفادي الحوادث.

لذا فالأفضل هو إيجاد نظام فراغي يضمن ويدعم السلوكيات والعلاقات الإنسانية عن طريق تدرج فراغي من خصوصية المنزل إلى خاص (جزء من المنزل) وشبه خاص (من فراغات مشتركة مع المنازل الأخرى) وشبه عام (شارع أو ساحة) وعام. هذا يتمشى مع طبيعة سلوكيات وأنشطة الناس الفطرية بحيث يكون لكل نمط منها فراغها بمواصفاته المناسبة كما هو موجود في الأحياء التقليدية السعودية.

تتأثر علاقة الإنسان بالبيئة المبنية بدرجة مفهومة ووعيه بوظائفها ومعانيها بحيث تتراوح بين علاقة عميقة وإيجابية أو سطحية وسلبية. فمثلاً نجد أن علاقة الإنسان السعودي مع عناصر المخططات الشبكية الحديثة غالبًا ضعيفة وسطحية. حيث تغير تصور ومفهوم الأشخاص عن وظائف كل من المسكن والمسجد والشارع وفقدوا معانيها. حيث نجد أن تصميم الشخص لمنزله مرتبط بتصوره، بحيث إن مستوى وعي الإنسان عن دور المنزل في حياته تجعله يصممه بناءً على مدى وضوح ذلك في ذهنه. فإذا تصور أن للمنزل معاني أخرى كمكان لإسقاط جميع الأقنعة الوهمية التي تثقله والتي يحتاج أن يستخدمها في

احتكاكه اليومي في البيئة الخارجية مع الآخرين، وأنه المكان المحمي الذي يهيىء له فرصة تعميق علاقته مع أسرته فإنه يبتكر ويوجد أماكن تدعم ذلك. فمثلاً في الماضي عند تصميم مجلس الضيوف يعبر صاحبه عن تفكيره وإحساسه به عن طريق التصميم والنقوش وعناصره الصغيرة التي تربطه ببيئته وتقوي من علاقة الضيف بالمضيف وتريحه والتي توحي بإدراكه بأهمية ذلك. لكن مجالس الضيوف في الوقت الحاضر عبارة عن أشكال صندوقية وغالبًا خالية ما عدا من بعض الأثاث. كذلك الحال بالنسبة للعناصر الفراغية الأخرى مثل الشارع والمسجد وغيرها، حيث يعتمد تصميمنا لها على إدراكنا لدورها في حياتنا لرفع الاستخدام النوعي. يتأثر تصورنا وتوجيهنا الفراغي للأشياء بما لدينا من مخزون معلومات عن المفردات المعمارية والعبارات العمرانية والتي بناءً عليها نبني منازلنا وشوارعنا. هذا أيضًا يرتبط بنظم البناء والظواهر الاجتماعية والمستوى الثقافي والوعي الاقتصادي والاتصال الخارجي وحصيلة المفاهيم العمرانية المكتسبة والمتوارثة بين الأجيال المختلفة (شكل٩).

تتسم عناصر المخططات الحديثة بالإنعزال والإنفرادية والذاتية من جرّاء استقلال بعضها عن بعض وعدم وجود لغة فراغية تربط بينها بمعنى شامل والتي غالبًا تركز على الوظيفة. تتصف كذلك المخططات الحديثة بتكرار عناصرها وصعوبة تمييز بعضها عن بعض مثل المنازل والمساجد والمدارس وحتى الشوارع. هذا الوضع منتشر في جميع مناطق المملكة حيث إن هذا التكرار الممل لايميز بين منطقة صحراوية أو جبلية أو بحرية أو مدينة أو قرية أو هجرة مما يسلبها معنى الشخصية البيئية والاجتماعية لكل منطقة. لذا نادرًا ما يلاحظ المرء وضوح وتميز المفردات العمرانية التي يمكن أن يميز مخطط (أو حي) عن آخر بناء على محيطه.

طبيعة التصنيفات الفراغية الحديثة وأنواعها ومقاييسها وعلاقاتها ببعض غيرت من مفاهيم الخريطة التقليدية الحسية والفطرية لسلوكيات وأنشطة السكان ومعانيها. هذا التغير بالإضافة إلى تأثير العنصر الاقتصادي وتطور التقنية والخدمات وضعف وانحطاط الفراغات الخارجية (شوارع وغيرها) نفر كثيراً من الأنشطة التي كانت ويفضل أن تحدث بالخارج مثال لعب الأطفال والأنشطة النسائية وغيرها وانتقلت إلى داخل المنازل. بذلك فقدت هذه

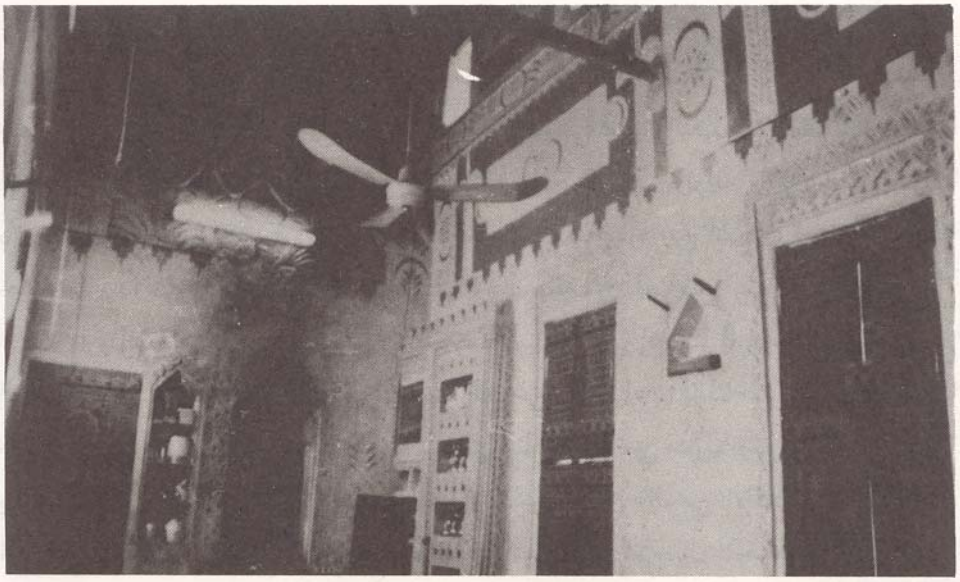

ا

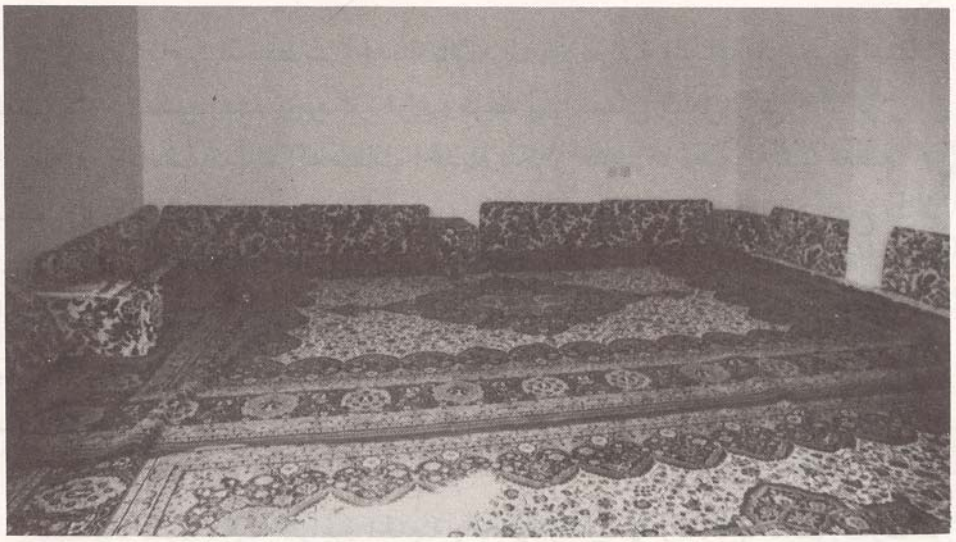

ب

شكل ٩. علاقة الإنسان بالبيئة تكون مبنية على مدى تصوره لوظيفتها وهذا بإمكانه أن يخلق علاقة قوية وإيجابية حسية وعميقة مثال مجلس الضيوف التقليدي (أ) أو سطحية وظيفية بشكل صندوقي كما في مجلس الضيوف الحديث (ب). لذلك كلما كانت معرفتنا وتصوراتنا صحيحة عن وظائف العناصر الفراغية كلما ظهرت بصيغة جوهرية وكلما كانت تصوراتنا غير واضحة ومغلوطة كلما نتج عندنا عناصر غير ملائمة لاستخدامنا.

الأنشطة ميزتها وكونت نوعًا من الضغوط داخل المساكن وسلبت هؤلاء المجموعات فرص احتكاك حضاري مهم والذي يفضل أن يحدث بين أبناء المجتمع في فراغات محايدة (شكل١٠).

بناءً على بعض البحوث التي أجراها الباحث على مخططات الخبراء الحديثة والتي تمثل المدن والأحياء الجديدة في مدن وقرى المملكة وجد أن أكثر المتضررين من العيش في الأحياء الحديثة هم الأطفال والنساء وبعد ذلك يأتي كبار السن وخاصة بالقرى بسبب عدم توافر بعض الفراغات الحيوية والتي تشكل جزء مهمًا في حياتهم اليومية [١]. فبالمقارنة لو تحققنا من المستوطنات التقليدية لوجدنا أنها تؤمن تلك الفرص المفقودة في المخططات الحديثة والتي تشكل عنصرًا مهمًا في نمو الإنسان وصحته النفسية والبدنية وصفاء تفكيره. فمثلاً وجود الفراغات الخارجية المشتركة بين الجيران مثال الساحة أو الشارع الغير نافذ وغيرها والمحمية من حركة مرور السيارات وحرارة الشمس في الأحياء التقليدية تشجع وتجذب الأطفال من داخل منازلهم إلى الخارج والاحتكاك والتعليم بين بعضهم البعض بطريقة فطرية حيث إن الصغير يراقب الكبير ويتعلم منه. هذا يصبح بديهيًا إذا رجعنا إلى استنتاجات كثيرة بحيث أصبحت معلومات عامة لدى علماء الاجتماع والتي تؤكد أن الطفل يتعلم من أقرانه أكثر بكثير مما يتعلم من والديه أو من مدرسته. أيضًا هذا يخلق متنفسًا وترويحًا للأطفال في اللعب في الخارج وتخفيف الإزعاج من داخل المنزل (شكل١١، ١٢).

كذلك بالنسبة للمرأة فقد انحسر نطاقها الفراغي في الحي السكني الحديث ولم يوفر لها أي فرصة فراغية خارجية على مستوى الحي أو الجيرة للقاء وربط الأواصر الاجتماعية. حيث إنه في المقابل تتوفر في المستوطنات التقليدية عادة أفضل فرص فراغية تكون شبه خاصة لكل مجموعة من المنازل مثال شارع غير نافذ أو غيره أو أماكن أخرى مثل متاجر نسائية ومركز حي تتجمع فيه النساء حيث يتكون من بئر ماء ومسجد نساء ومكان للجلوس. لذلك من جراء انكماش الحقوق الفراغية للمرأة إلى داخل المنزل وعدم مقدرتها كذلك على التواجد في الفراغات المفتوحة وهي غالبًا ارتدادات منزلها بسبب اختراق الخصوصية المتبادل بين فتحات الفلل فإنه يزيدها كبتًا ويسبب لها مشكلات صحية

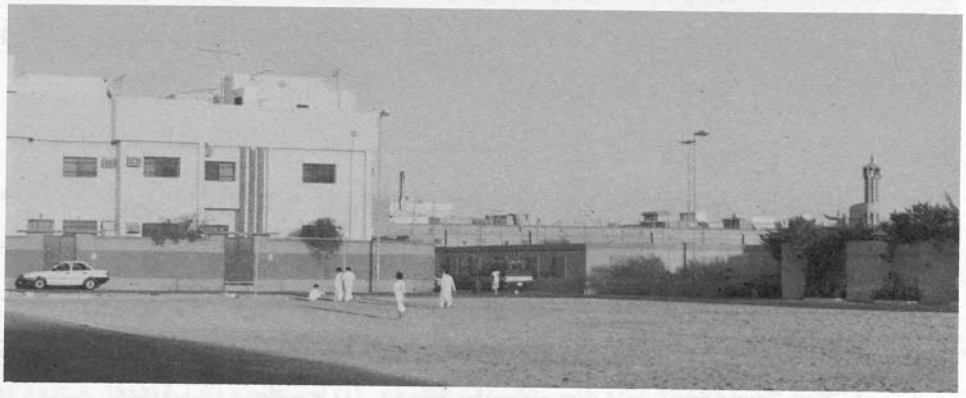

شكل ١٠ . يضطر الأطفال والشباب في الأحياء الشبكية الحديثة للتأقلم الصعب الخطر لمزاولة أنشطتهم في أراضي بيضاء غير مبنية أو شوارع حركة المرور.

شكل ١١ . أهمية إيجاد الفرص الفراغية المختلفة لجميع الأعمار والأجناس في البيئة السكنية ليحدث الاحتكاك الحضاري بين الأفراد ويكون وسيلة للتواصل الاجتماعي والتعليم وتنفير التحفيز الإجرامي الذي يحدث من جرّاء خلو الشوارع من الحركة والحياة .

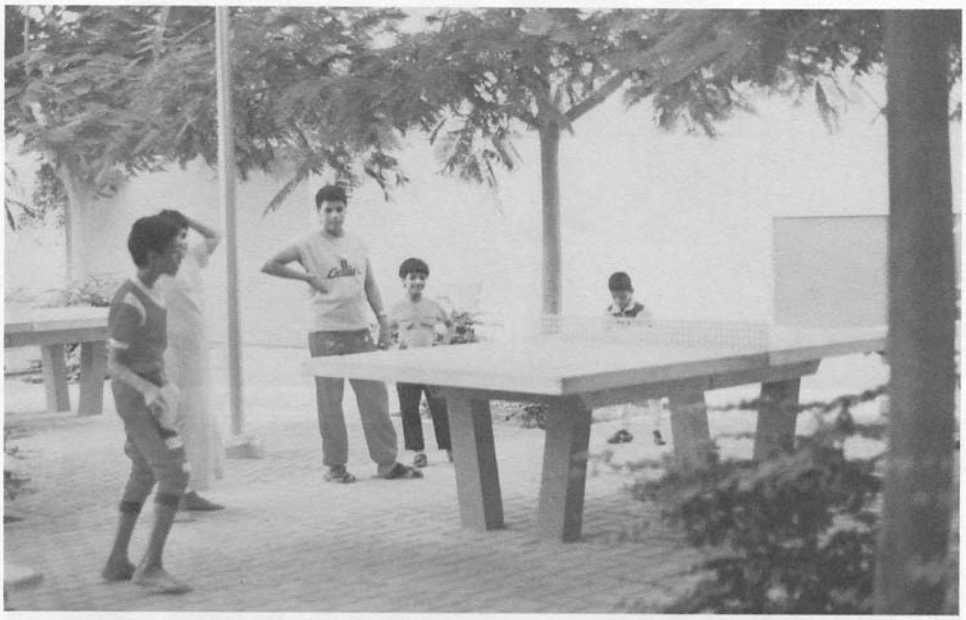

شكل ١٢ . يشكل الشارع والفراغات السكنية الأخرى بيئة مهمة للنمو والاحتكاك الحضاري للإنسان بالآخرين . فنلاحظ تدعيم وتشجيع المستوطنات التقليدية والحديثة الخاصة كما في مدينة عنيزة وحي موظفي وزارة الخارجية بالرياض لتكوين الأنشطة المختلفة . فمثلاً يستطيع الأطفال الاختلاط والتعلم من بعض كما يلاحظ من هذه الصور من مراقبة الصغار للكبار والاقتداء بهم .

ونفسية. فمثلاً نجد أن أغلبية المواليد الجدد مصابون بالصفار ومن أحد أسبابها كما يقول الأطباء عدم تعرض الأمهات لضوء الشمس الكافي لعدم وجود الفرص الفراغية لذلك.* كذلك كثير من الضغوط النفسية لدى النساء وكذلك بقية أفراد الأسرة مصدرة ـ جزئيًا ـ هو العزل فراغيًا بين المنازل مما يقلِّل فرص اللقاء بين ساكنيها وهذا بدوره يولِّد المشكلات الصحية والخوف والرهاب الاجتماعي وعدم الإحساس بالأمان من جرَّاء عدم معرفة الجيران، فالإنسان عادة يخاف مما يجهل (شكل ١٣).

لذا نجد أن طبيعة المخططات الحديثة وتوجيهها الفراغي تنفر من تواجد الأنشطة في فراغاتها الخارجية المتمثلة في الشارع بسبب عدم توفير الفراغات الكافية والملائمة وهيمنة حركة مرور السيارات عليها وتعرضها لعوامل الطقس (الشمس). هذا الوضع بدوره يضعف التكامل والاتصال الاجتماعي ويشجع على حدوث الجريمة. بناءً على ذلك نجد أن أغلبية الناس يقضون وقت تحركاتهم وانتقالاتهم في البيئة السكنية داخل السيارة مما يقلِّل فرص اللقاء المباشر وتحول أغلب الاتصال بالخدمات عن طريق السيارة. سنتطرق هنا امتدادًا لهدف هذه الدراسة في التركيز على الأحياء السكنية الحديثة إلى أهم عنصرين فيها وهما المنزل والشارع.

المنزل

يعتبر المنزل أهم عنصر في البيئات السكنية والأهم في المخططات الشبكية الحديثة لتوقعنا منه بأن يقوم بأعباء كثيرة والتي بعضها كانت تحدث في الماضي في الفراغات الخارجية ومشتركة مع الجيران. فالمنزل في المخططات الشبكية أصبح يحوي جميع أنشطة سكانه. فمع اختفاء بعض العناصر التي يتوخى أن تكون موجودة على مستوى الحي مثال فراغات مفتوحة وحدائق وملاعب أطفال ومكتبات ومراكز ثقافية ورياضية وأماكن تجمعات، حاول كثير من السكان إيجادها في منازلهم. لذا كبر حجم المنازل وتكرر داخلها العناصر التي سبق ذكرها والتي تقوم عادة بدور اجتماعي وحضاري يربط بين سكانها. هذا جذب أنشطة الجيران

* هذا مبني على استقصاء الباحث من بعض أطباء الأطفال في مستشفى الملك فهد التخصصي بالرياض.

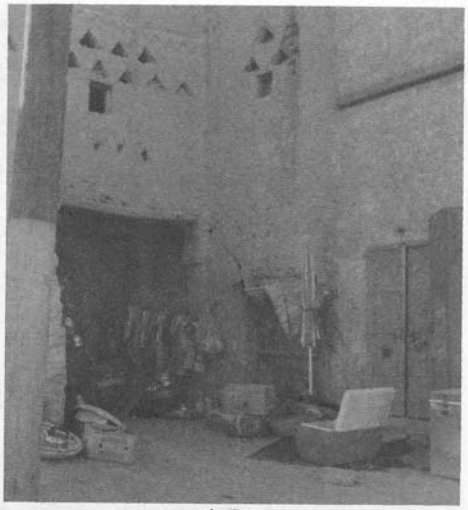

متجر نسائي

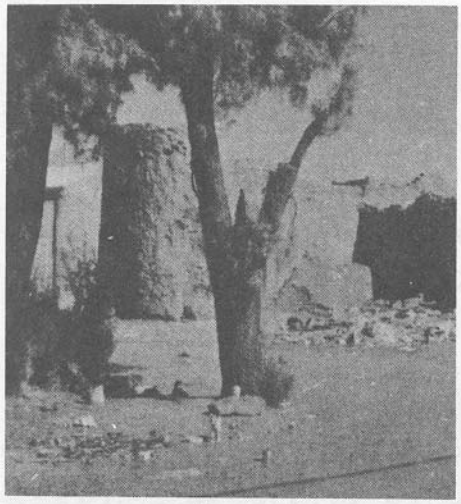

مركز حي تقليدي

متجر نسائي

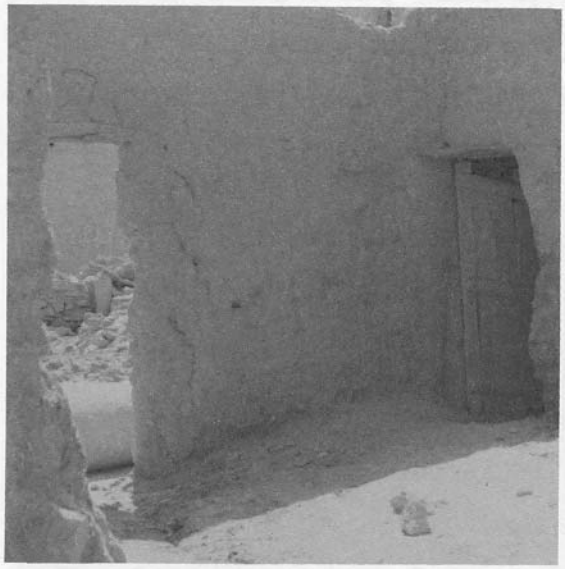

فراغ خاص للنساء يفتحن عليه أبوابهن

شكل ١٣ . لقد تغير وانكمش نطاق المرأة الفراغي في المخططات الحديثة وانحسر غالبًا داخل المنزل. في الماضي نجد أن للمرأة فرص فراغية أكثر في حياتها لوجود محلات تجارية / اجتماعية نسائية وفراغات خاصة بنساء الجيرة ومركز حي يتكون من بئر ماء ومصلى وجلسة لهن.

لتوفير الخدمات والتي من المفروض أن تكون في الخارج ومشتركة مع الجيران. لذا فالأغلبية حسب استطاعتهم المادية يؤمن ما استطاع من السبل الخدمية والكمالية والترفيهية والاجتماعية لجميع أفراد العائلة من ملاعب أطفال وملاحق مستقلة للمراهقين وملاحق خاصة للخدم والسواقين ومكتبة وبركة وغرفة ألعاب وفي بعض الأحيان مساجد كما في بعض القصور.

فطبيعة هذه المنازل تركز حياة ساكنيها وتعزلهم عن بقية الحي والمدينة. كذلك في بعض الأحيان تتسبب في ابتعاد بعض أفراد الأسرة عن بعضها البعض، فمثلاً انعزال الشباب المراهقين في ملاحق وأجنحة وتدعيم ذلك في سيارات مستقلة بإمكانه أن يقلِّل من فرص احتكاكهم مع أهليهم وآبائهم وأصحاب آبائهم الذين يعتبرون مصدرًا للتعلم والنضج والتواصل الحضاري بين الأجيال.

لذا عندما نفكر في بناء المنازل فيجب أن لا نفكر فقط في حدود خط الملكية، إنما ننظر إلى ما هو أبعد وأعمق من ذلك وهو الارتباط بالعناصر المجاورة من منازل وشوارع وغيرها وبشمولية. لذا فنحن بحاجة إلى استخدام وسائل تضمن استغلال الفراغات الخارجية من شوارع وغيرها بطريق إيجابية وفعالة ولتكون مكملة واستمرارية لأنشطة سكان المنازل المحيطة بها. من أهم هذه الوسائل هو وضع نظام استخدامات أراضي لتوجيه تصميم الأماكن الخارجية لأهداف معينة وتنسيق العلاقة بين المنازل المتجاورة من حيث الخصوصية وحقوق استخدام الملكية الأخرى وكذلك محاولة مشاركة أصحاب المنازل في تحسين وتصميم الفراغات المشتركة بينهم لإعادة بعض الأنشطة الداخلية إلى الخارج لتخفيف أعباء المنزل. فالمنزل جزء لايتجزأ من البيئة المحيطة سواء المبني أو الطبيعي وأن أهمية العناية بالفراغات المحيطة في المنزل يجب ألاَّ تقل عن العناية في تصميم داخله. بذلك نكون قد أعدنا الحلقة المفقودة بين حياة المنزل وحياة الشارع من جراء الربط الفراغي بينهما للحصول على تدرج وتوازن بين الخاص جدًّا والعام جدًّا وبينهما شبه الخاص وشبه العام.

أن للبيئة المبنية دورًا كبيرًا في التأثير على حياة الإنسان وصحته النفسية والاجتماعية، حيث إن صحة الإنسان النفسية غالبًا متأثرة ومرتبطة بالمجتمع من حوله، فكلما زادت فرص

الاتصال بتوفير الفراغات والاحتكاك والتعارف كلما قل الخوف والشحن النفسي وعدم الثقة وكذلك يزداد الشعور الإيجابي ويقلِّل الرهاب الاجتماعي. لذلك كلما أزيلت العوائق بين أبناء الجيرة الواحدة كلما قلَّت الكلفة وقويت العلاقات وارتفع مستوى الوعي عن طريق تبادل المعلومات المكتسبة المستمر مع الإحساس بالمشاركة والتكافل والتضامن. هذا يشجع على تكوين روح الجماعة وحمايته المصالح المشتركة وخلق الأمن الاجتماعي والعودة إلى الحياة الفطرية الأيكولوجية والتي تؤمن الراحة والطمأنينة. كل ذلك يخلق بيئة تعلم واحتكاك حضاري ومن جراء وجود الأنشطة المعبرة عن ذلك في الشارع والفراغات الخارجية سيساعد على تنفير الجريمة.

الشارع السكني

يوجد عدة أنماط من الشوارع منها التجاري والترفيهي والسياحي والشرياني والثقافي والسكني وهو الذي سنركز عليه لأهميته في احتواء وتهيئة البيئة المدعمة لحياة المنزل.

يعتبر الشارع السكني من أهم العناصر العمرانية الخارجية والتي تؤثِّر على حياة الإنسان ونشاطه بعد المنزل حيث أنه تقليديًّا مكمل لأنشطة المنزل ومكان حيوي خاصة لأنشطة الأطفال والنساء وكبار السن فهو المدرسة الفطرية التي يتعلم فيها الطفل كثيراً من الدروس الحضارية والاجتماعية تحت مراقبة الأمهات وتوجيه كبار السن. كذلك الشارع هو المكان الذي ينسق بين الحياة داخل المنزل والعالم الخارجي ويحافظ على التدرج المطلوب بين الخاص والعام ويشكل البيئة الأولى لنمو الإنسان واحتكاكه بالآخرين. هذه البيئة عادة تشكل جزءًا مهمًّا في تاريخ حياة الإنسان وترسم بعض الذكريات والمعاني والتي بعضها يخزن في الذاكرة ويصبح مصدرًا ومرجعًا في حياتنا. فالشارع هو غالبًا البيئة الفراغية للانتقال من عنصر إلى آخر لذا فهو عنصر اتصال ويحوي كثيراً من أنشطة سكان الجيرة ويحافظ على مصلحة واهتمامات الساكنين عليه مع المحافظة على المصلحة العامة. كذلك يلاحظ اختلاف دور الشارع السكني في حياة السكان من زمن إلى آخر ومن بيئة إلى أخرى ومن مجتمع إلى آخر من حيث العادات والتقاليد والعمر والجنس والمستوى الاقتصادي والثقافي. إن أغلبية مستخدميه عندما يوجه بطريقة مناسبة هم الأطفال والنساء وكبار السن وذوي

الدخل المحدود. لكن ذوي الدخول المرتفعة يكونون أقل ارتباطًا بالشارع في الوقت الحاضر حيث إنهم عادة يمتلكون منزلاً كبيرًا يضم كثيرًا من سبل الترفيه وبذلك ينجذبون إلى داخل منازلهم وهذا ما حدث لكثير من الأسر السعودية. لذا يلاحظ أن الشارع السكني الحديث في المخططات الشبكية يلعب دورًا سلبيًّا في حياة السكان على نطاق واسع في جميع أرجاء المملكة بسبب هيمنة حركة المرور عليه وتهديدها للسكان وعدم حمايته الطقسية. كذلك نوعية سكان الشارع ودرجة الاختلاف والتشابه بينهم تؤثِّر في طبيعة وظيفته. حيث إنه كلما ارتفعت درجة التشابه كلما زاد من إيجابيات المشاركة في استخدامه وبالعكس. إن الشارع السكني في المخططات السعودية يحتاج إلى كثير من الدراسة لمعرفة دوره الحالي والمستقبلي في حياة ساكنيه. فيلاحظ أن أغلبية سكان الأحياء السكنية الحديثة هم من العوائل الشابة الصغيرة التي هاجرت من مساكن أسرهم بعد الزواج بمساعدة صندوق التنمية العقاري وارتفاع مستوى الدخل. هذا يعني أن استخدام هذه الشوارع سيكون كثيفًا في المستقبل عندما تكبر تلك الأسر ويزداد عدد أطفالها وشبابها وبناءً على ذلك يكثر عدد السيارات ويزداد التعارف والاتصال بين الجيران. سينتج عن ذلك زيادة في وظائف الشارع مع الحدة في الاختلاط بين الأنشطة والتجمعات وحركة الاتصالات وحركة مرور السيارات مما يحتم عليه تغيير بيئة الشارع الحالية (شكلا ١٤، ١٥).

اتصف الشارع بتصورات مختلفة لدى الناس ومن ضمنها التصور السلبي والذي ينفر بعضهم من السماح لأبنائهم بالتواجد به كما في قولهم «تربية شوارع». هذا المعنى في الواقع ليس صحيحًا ما عدا في حالات قليلة عندما تكون التربية في المنزل غير صحيحة فتنقل إلى الشارع مع غياب عدم المراقبة من الأهل. لكن بيئة الشارع الاجتماعية تمثل أحد أوجه الحياة الواقعية والتي لابد للطفل أن يتعرض لها.

تركز غالبية الدراسات التي عملت بالغرب واليابان على مدى تأثير حركة مرور السيارات ومخاطرها على سكان الشارع الذي غالبًا يختلف عن شوارعنا من حيث المقياس والمضمون [١٦، ١٧]. لكن عندنا بالإضافة إلى المخاطر الجسمانية من هيمنة حركة السيارة فإن لها مشكلات أخرى متعلقة بطبيعة مجتمعنا من عادات وتقاليد مثال تأثير تصميم

ا

ب

شكل ١٤ . بقية أمثلة من الشوارع أحدها يعزل حركة المشاة من السيارات برصيف مع مسافة للتشجير والتجميل (ا) بينما الآخر لايعطي أي فرصة للمشاة وجعله مهيىء للسيارة (ب) . هذه الأنواع من تصاميم الشوارع مع ما سبق ونواحي أخرى كقفل الشارع أو فتحه وعرضه ودرجة التحكم بحركة المرور وغيرها بإمكانها أن تحدد نوعية استخدام الشارع بحيث يتراوح بين سيطرة سكانه أو هيمنة الحياة والحركة العامة عليه .

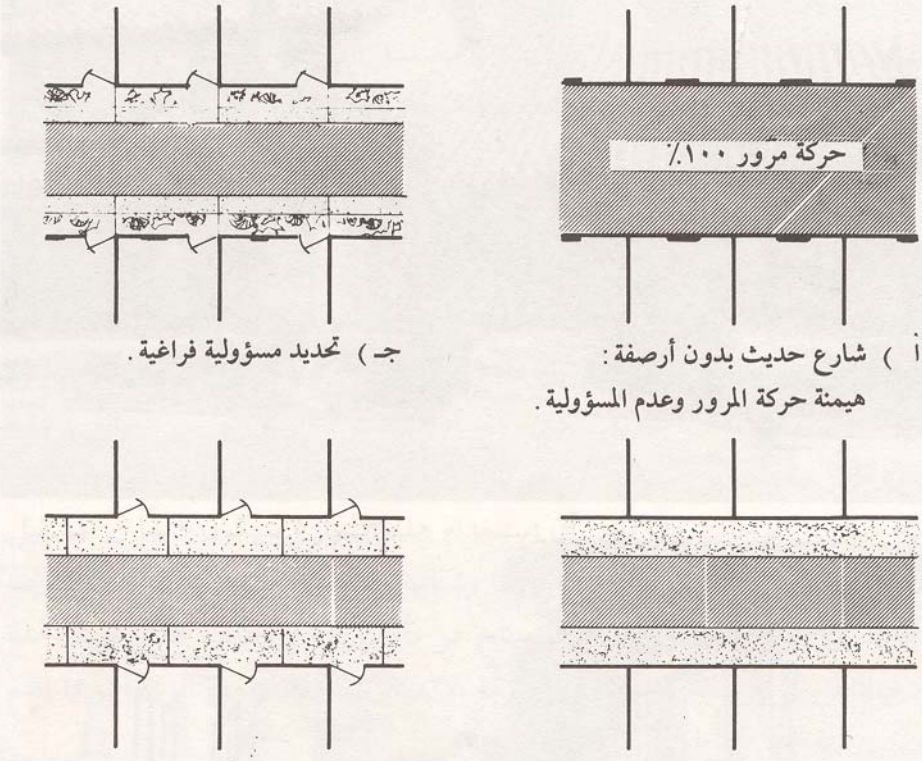

أ) شارع حديث بدون أرصفة : هيمنة حركة المرور وعدم المسؤولية .

جـ) تحديد مسؤولية فراغية .

ب) شارع حديث مع أرصفة : هيمنة حركة مرور، وبدون توجيه مسؤولية فراغية .

د) صعوبة تحديد المسؤولية الفراغية .

شكل ١٥ . طريقة تصميم الشارع وتصنيف عناصره تؤثّر على مستوى مسؤولية السكان تجاهه بشكل مباشر. فلو استعرضنا أنماط مختلفة من تصاميم الشوارع لوجدنا أن الشارع (أ) و(ب) من شكل (١٧) مفقودة المسؤولية لعدم تحديدها للسكان كما في مدننا الحديثة ، وشارع (د) يعطي شبه مسؤولية بين كل منزلين بينما شارع (جـ) وتقسيمه إلى مناطق خاصة تحدد المسؤولية المباشرة لكل منزل على الفراغ المقابل له . فلقد أثبتت الدراسات أن لهذه الأنواع من التقسيمات والتوجيه للشوارع تأثيراً كبيراً على مدى مساهمة السكان في تصميم وتشجير وصيانة الشوارع .

واستخدام الشارع على مبدأ الجيرة والاتصال وعلى نمو الإنسان بشكل عام. كذلك طبيعة المجتمع السعودي يختلف بشكل كبير عن المجتمعات الغربية وبعض المجتمعات الأخرى حيث إنه يتصف بحب التقارب والمشاركة والكرم والاجتماع والتي لم يؤخذ لها اعتبار في مخططاتنا الحديثة.

تختلف مكونات الشوارع الفراغية من بلاط وأسفلت وأسمنت وتشجير وعناصر خدمات وصناديق ومواقف ومداخل وجلسات ودرج وأثاث فراغي وتتفاوت في التعقيد والبساطة. كذلك تتراوح وظائفها بين سيطرة تامة من قبل المشاة عليها وتجمعاتهم والعكس وهو هيمنة حركة مرور السيارات عليها. أيضًا يتراوح حق استخدام الشوارع السكنية بين الاستخدام الخاص والموجه لسكانه كما في شارع غير نافذ وهيمنة الاستخدام العام لجميع السكان كما في الشوارع النافذة في المخططات الحديثة. ويدخل في ذلك تجمعات المشاة وتحركاتهم وجلوسهم والانتقال وقطع الشارع من منزل إلى آخر ولعب الأطفال ولقاء الجيران، وبالمقابل اتصال حركة السيارات بالمنازل ومواقعها وكذلك مرور الحركة الخاصة أو العامة من خلاله.

لقد اختفت الحياة من أغلبية شوارع مدن وقرى المملكة بسبب كونها ممرات حركة مرور مملة ومكررة من جراء التوجيه الشبكي الحديث لتلك المخططات وأنظمتها وأصبحت العلاقة ضعيفة بين السكان وشوارعهم. كذلك فقد كثير من ضحايا السيارات والذين هم غالبًا من الأطفال العابرين إلى مدارسهم أو أثناء اللعب في الشارع.

من أهم أهداف تصميم الشارع المحافظة على التوازن المطلوب من قبل ساكنيه بين الخصوصية والعمومية حيث إن الدين الحنيف يدعم ذلك في الدعوة إلى الحفاظ على حرمة الدار الخاصة مع التواصل والتعاون والتكافل مع الجيران فالرسول ﷺ أوصى بسابع جار. كذلك يتطلب من الشارع السكني المحافظة على خصوصيات الجيرة والهدوء والطمأنينة والحماية الأمنية والراحة الجسمانية والنفسية والجاذبية والنظافة والتحكم بمخاطر ومشكلات مرور السيارات مع المحافظة على سهولة الاتصال وربط أواصر الجيرة التي يدعو إليها الدين والعلم الإنساني والعادات والتقاليد.

لذا بناءً على الأهداف السابقة نستطيع أن نكون حلولاً تطبيقية لأنواع ومشكلات الشوارع المختلفة الموجودة في الأحياء الشبكية الحديثة. بعض هذه المعالجات صغيرة وغير مكلفة لكن مردودها سيكون كبيراً جدًّا على المدى البعيد. هذه تتراوح بين الإقفال التام للشارع وحصر استخدامه على ساكنيه أو التحكم بسرعة واتجاه حركة المرور وتمديد الأرصفة وإيجاد أماكن لتدعيم الأنشطة المختلفة وحماية خصوصية المنازل من مداخل وفتحات. كذلك أهمية تشجيع مشاركة المستخدمين وامتداد مسؤوليتهم من نطاقهم المنزلي إلى نطاق شارع الجيرة والمشاركة في توجيهه والاستفادة منه (شكل١٦).

الاتجاهات المعمارية والعمرانية الحديثة

سنتطرق هنا إلى تحليل الأنماط العمرانية التي ظهرت في بعض مناطق المملكة في الماضي وفي الوقت الحاضر وكذلك المؤشرات المستقبلية. هذا يحوي مبادىء العمارة التقليدية والحديثة والمعاصرة وهو الرجوع إلى محاكاة العمران التقليدي. سنستعرض كذلك بعض الاتجاهات السكنية داخل المخططات الشبكية الحديثة مثل «البلكات العائلية» و«جيوب المجمعات السكنية».

تفهم مسيرة تطور النسيج العمراني وتغيره مهم جدًّا لمعرفة الاتجاهات المستقبلية وتوضيح بعض مؤشراتها للتعامل معها بطريقة ناجحة وصحيحة وذلك لاختيار الأفضل ومنع حدوث مشكلات اقتصادية واجتماعية وبيئية والمحافظة على استمرارية طبيعية.

لقد كان النسيج العمراني في المستوطنات الإنسانية السعودية في الماضي تعبير جماعي ونابع من رغبات السكان لذا تميز بالشمولية والترابط بين أجزائه. فالبيئات السكنية التقليدية في المملكة تعبر عن محصول من الخبرة المكتسبة على مر السنين والمتوارثة بين الأجيال والتي كل جيل يطور ويضيف إليها لتتجاوب مع احتياجاته. فنرى أن بعضًا من صفاتها مازالت صالحة لهذا الزمان وهي الأفضل والبعض الآخر يحتاج إلى تطوير. لذلك نلاحظ أن النسيج العمراني التقليدي أقرب ما يكون إلى الإنسان وطبيعته حيث إن المنازل تشابه البصمات أو

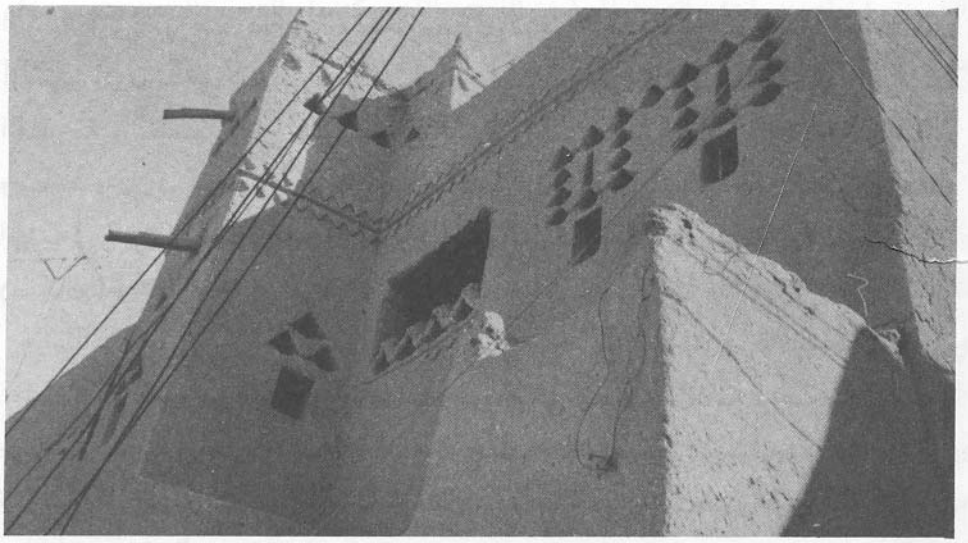

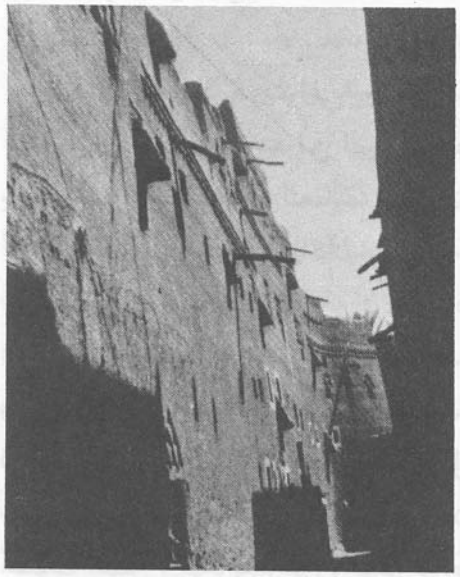

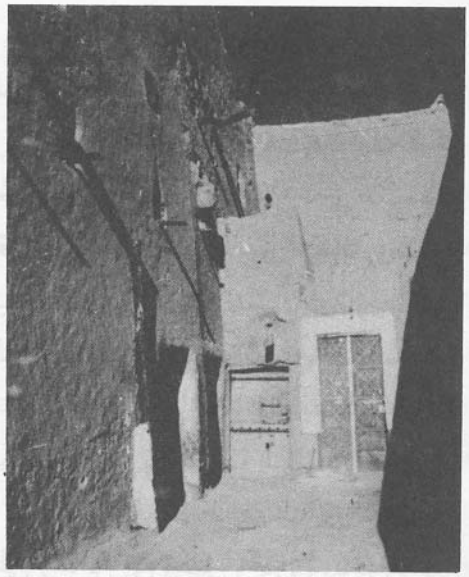

شكل ١٦. يعبِّر العمران التقليدي عن تطور حياة الإنسان وتاريخه هنا على مر الأزمنة. فالتصميم والطابع العمراني لم ينتج من فراغ أو طفرة، إنما هو نتاج تجارب إنسانية متطورة ومتوارثة عايشت ظروفًا قاسية للتأقلم مع البيئة الصحراوية ولتتجاوب مع احتياجات السكان الاجتماعية والمعيشية بطريقة جوهرية. لذا فهي تحتفظ لأبنائها بمعانٍ حيوية وأساسية لصحة البيئة السكنية تفتقر إليها المخططات الحديثة التي فشلت في أداء وظيفتها.

التواقيع والتي كل منها يعبر عن أصحابه، لأن عملية التصميم والبناء صادرة من السكان أنفسهم ودون تدخل أنظمة أو مهندسين من الخارج. هذا كذلك ينعكس على الفراغات الخارجية وأنظمتها والتي سبق ذكرها. لذا نرى أن عناصر النسيج العمراني من منازل ومساجد ومحلات تجارية وغيرها وتشكيلاتها تنسق بين الشمولية والترابط والتناغم مع إعطاء الحرية في اختلافات معينة في الأحجام وبعض الأشكال لتعبر عن طبيعة الإنسان المختلفة (أشكال ٤، ٥، ٧، ١٦).

كذلك من الناحية العمرانية تمتلك المخططات التقليدية أنظمة فراغية متطورة جدًّا حيث إنها تربط سلوك الإنسان وأنشطته بنظام حياة الإنسان الأيكولوجية الفطرية التي تنعكس على التدرجات الفراغية بشكل نطاقات ذات خصوصيات متدرجة وكذلك التوازن بين الخصوصية والعمومية.

لذا كان هناك تعبير فراغي اجتماعي يعكس الاحتياجات الإنسانية للأنشطة والطبيعة الفطرية للاتصال بتوجيه من البيئة المحيطة من طبيعة جغرافية وعادات وتقاليد مندمجة بالأحاسيس الإنسانية والتعاليم الدينية. بعد التغير الاقتصادي الذي سبق ذكره تغير أسلوب العمران المحلي الذي كان يعمل به من قبل سكان الحي عن طريق التكافل ومشاركة الجميع من صاحب السكن والجيران و«أستاذ البناء» بحيث ينتج عنه عمران ذو تأثير وأصول محلية تعكس طبيعة وشخصية السكان. هذا التغير وما صاحبه من تفاوت في أسلوب الحياة وازدياد الفرص وعدم مقدرة السكان وأساتذة البناء المحليين على مواكبة ذلك لعدم وجود التقنية وانشغالهم بالمكاسب المادية، أدى إلى توقف التعمير بالأسلوب التقليدي تمامًا وبدأ عصر انتشار العمران العالمي الحديث. خلال تلك الفترة تغيرت طريقة البناء وانتقلت من أسلوب أصيل وجوهري ومحلي وجماعي واجتماعي وشامل إلى وسيلي وتجاري وفردي ومهني وعالمي. لذلك تحول العمران إلى عمارة انفرادية متقوقعة على نفسها ومستقلة وخضع إلى اجتهادات وظواهر فردية وانعزالية متأثرة بالحركات المعمارية الحديثة مثل مدرسة Bauhaus الألمانية و Le Curbusier الفرنسية ومنظمة CIAM الأوروبية وغيرها. هذه التيارات الحديثة وقوة وهيمنة الاقتصاد الغربي دعم الاستمرارية في هذا الاتجاه حتى فقد «الإحساس

العمراني الجماعي» وانتشر التعبير المعماري الفردي الذي ركز على العنصر الواحد بدون ربط مع العناصر الأخرى.

كذلك تغير العمران من جهد ذاتي أصيل إلى سلعة تجارية، وبدلاً من أن تصمم وتخطط مع توجيه من السكان أصبحت تصمم وتوجه من مصدر خارجي وبشكل فردي للسكان بدون المعرفة الدقيقة السابقة لطبيعة احتياجاتهم ورغباتهم. هذا الاتجاه الحديث في البيئة السكنية أفقدها تماسك النسيج الاجتماعي الذي يعتمد جزئيًا على تماسك النسيج العمراني لذا حدث اختلاف في أسلوب التفاعل بين المستخدم والعنصر الفراغي من جراء وجود الوسيط المهني (المعماري) ونظم العمران مما قلّل من تعبير وتشخيص العنصر الفراغي من قبل مستخدميه وهيمنة شخصية المصمم عليه بدلاً من ذلك.

هذا لايعني أن الطريقة التقليدية هي الصحيحة فقط، وليست الطريقة التقليدية ثابتة وجامدة إنما كانت طريقة صحيحة من السهل تطويرها واستمراريتها ومراعاة مبادئها وربطها بالمتغيرات بدلاً من استيراد نسيج عمراني أجنبي ومحاولة استخدامه وتطويعه. فمثلاً هناك بيئات سكنية حديثة تعبر عن بعض المبادىء التي ذكرناها عن التقليدية لكنها شاذة حيث إنها مغلقة على نفسها بشكل «جيوب سكنية محمية» كما في الإسكان الحكومي وغيرها.

لذلك هذا الاتجاه في انتشار العمارة الحديثة ذو الأصول الغربية من ناحية نظمها وموادها كان مصيره الفشل المتوقع وعدم الاستمرارية، ومع ازدياد الوعي سيقل الإقبال عليه حتى يزول [١، ٤].

لقد مرَّت فترة الثمانينات بنوع من التشكك والريبة والتخبط حول أسلوب البناء الحديث من قبل المعماريين والمستخدمين، وهذا أحدث عدم الثقة بينهم وأصبح المعماريون مجرد ناقلين لأفكار خارجية بدون أدنى حد من الإبداع. لذا بدأ بعض السكان وخاصة الطبقة الواعية (المثقفة) يحسون بابتعاد البيئة السكنية الحديثة عن واقعهم واحتياجاتهم وأحاسيسهم. هذا أوجد نوعًا من البحث عن طابع معماري أقرب ما يكون إلى

شخصيتهم. تجاوبًا مع ذلك ظهرت بعض الاجتهادات من ناحية المهنيين والتقبل من قبل المستخدمين في ظهور طابع عمراني أقرب إلى التعبير المحلي من ناحية اقتباس الطابع التقليدي بطريقة مجردة ومطورة أحيانًا وبطريقة النسخ في أحايين أخرى (شكل ١٧).

تتضح المؤشرات المستقبلية لمحاكاة الاستمرارية مع الاتجاه التقليدي في الاتجاه العمراني الحديث من خلال ملاحظة التطور الذي طرأ على الإحساس والقبول التدريجي لبعض العناصر السابق وجودها في العمارة التقليدية مثل فناء المنزل. فنجد أن هناك بعض المحاولات لإعادة استخدام الفناء كعنصر رئيسٍ في قلب المسكن بحيث أخذ في البداية شكل فراغ ينفتح على دوري المنزل بحيث يكون مسقوفًا كليًّا، لكن في السنوات الأخيرة اقترب إلى كونه فناء مغلقًا عن الهواء من الأعلى مع المحافظة على منافذ للضوء الطبيعي. بعد ذلك بدأت تظهر محاولات أكثر تقدمًا في الاتجاه إلى الفناء المفتوح وذلك بجعله منفتحًا أكثر للضوء مع التحكم في الحصول على الهواء وفي حالات نادرة يكون مفتوحًا. لذا نرى أن عنصر الفناء التقليدي سيعود تدريجيًّا بشكل أفضل مما كان عليه ليصبح من أهم العناصر التي يفكِّر فيها المستخدم عند تصميم مسكنه بالإضافة إلى عناصر أخرى يتم تطويرها بأسلوب محلي وعصري مثل أنظمة التهوية ومواد البناء والضوابط العمرانية، وبعد ذلك يكتمل تصحيح المسار العمراني في المملكة.

هذه المحاولات ماتزال بعيدة عن استمرارية النمو والتطوير الصحيح للنسيج العمراني المحلي حيث إنها غالبًا ما ركزت على القشور مثل الديكور والفتحات واللون التقليدي والتفصيلات مع استمرارية الأسلوب الإنفرادي وعدم التطرق إلى الجوهر والمضمون لهذه العناصر المعمارية ونسيجها العمراني. فمثلاً أغفلت عملية تطوير صيغة المنزل العربي والمدينة العربية/ الإسلامية مع مراعاة استمرارية بعض المقومات وتغير بعضها. حيث إن من أهم النواحي التي ماتزال سببًا في فشل البيئة السكنية هو عدم تفهم واستيعاب النواحي السلوكية للسكان وتغيرها وعلاقة ذلك بالتصنيفات الفراغية.

أيضًا ظهرت في الآونة الأخيرة أفكار ومنتوجات عمرانية جديدة تحاول أن تحاكي ظهور الاتجاه الجديد في المباني السكنية وغيرها في المملكة وبعض دول الخليج والدول

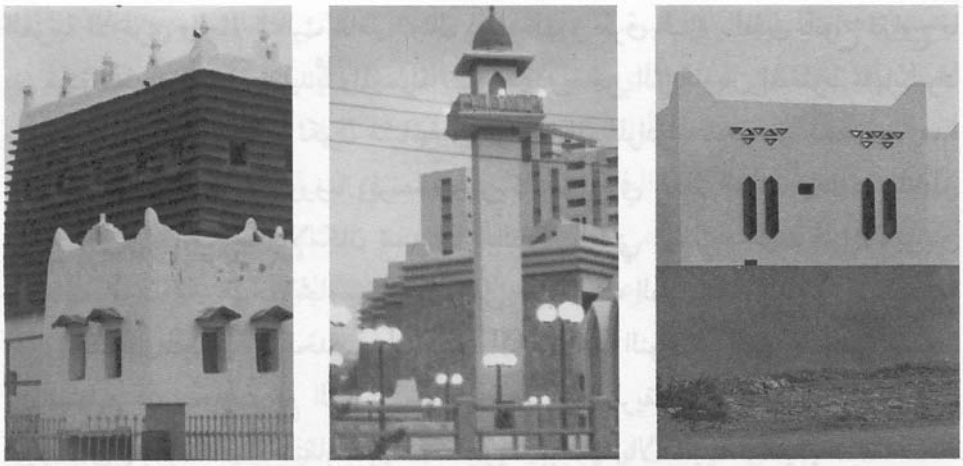

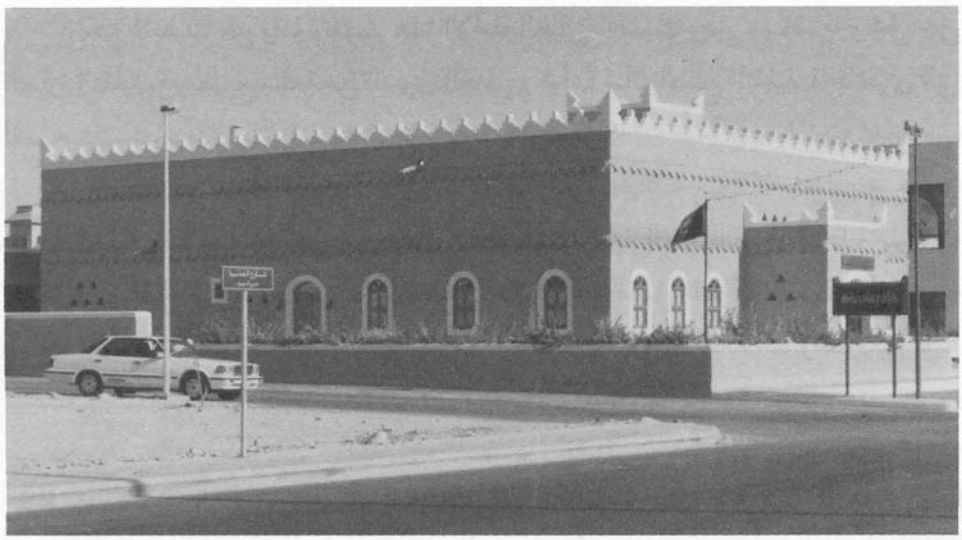

شكل ١٧ . تجري محاولات ذات نطاق واسع في جميع مدن وقرى المملكة لمحاكات الماضي وتقليد الطابع المحلي وهذا شيء طبيعي بسبب إحساسهم بابتعادهم عن ماهيتهم وحضارتهم فكان انتشار ردود الفعل . وما زال هذا في مرحلة التبلور والنمو لكنه لم يصل إلى مرحلة «النضج العمراني» ، حيث إنها عباراة عن نسخ وتقليد للماضي تحتاج إلى تطوير لتتمشى مع نمو وتغير الإنسان وأسلوب حياته .

العربية الأخرى والعالم الثالث عامة. مثال ذلك ظهور طرق البناء بالطين بأنواع تتراوح ما بين مادة الطين المعروفة تقليديًا والمعمولة بطريقة يدوية من التربة وبين المخلوط منها بمواد مقوية ومضغوطة وأقرب ما تكون مشابهة في مزاياها إلى المواد المسلحة (الأسمنتية). هذه الطريقة بدأت تظهر في أوروبا (فرنسا) وأمريكا وتنتشر في العالم الثالث وخاصة المناطق الصحراوية الحارة. إنه بالإمكان تسميتها «بالطراز الطيني العالمي» حيث إنها لاتميز بين البيئات المختلفة. هذا الإتجاه يركز غالبًا على مواد البناء الطينية من الناحية الاقتصادية لذوي الدخل المحدود ويستخدم في أي بيئة. لذا فإن هذا النوع من العمارة العالمية الجديدة لن تستطيع أن تتجاوب مع البيئة السعودية حيث إن الطريقة التي اتبعها أفقدته خواصه البيئية، وإنما بالإمكان الاستفادة من هذه الطريقة بربطها بالأساليب التقليدية.

لكن لابد لنا من وقفة وتقويم هذا الاتجاه العالمي الحديث وهل سينافس أو يحل محل العمارة التقليدية ويصبح سلعة من السوق العالمي، شأنها شأن السلع التقليدية الأخرى التي أصبحت تستورد مثال الأثواب والشمغ والأحذية والعقل؟

كذلك الاتجاه الآخر هو محاولة إحياء واستمرارية البناء بالطرق المحلية للبيئات المختلفة من قبل خبراء محليين. هذه تعد بأن تكون من أفضل الطرق الحديثة إذا وجهت بأساليب واقعية وبصبغة محلية ومرتبطة بشكل جوهري وملموس بالعادات والتقاليد والبيئة المحلية.

تدور هذه الاتجاهات حول المقياس المعماري والهندسي لكن إلى الآن لايوجد اتجاهات موازية لذلك في المقياس العمراني العام بديلاً عن المخططات الشبكية ماعدا في المخططات الخاصة والمغلقة بشكل «جيوب سكنية».

لقد كان من جراء تأثير المخططات الشبكية الحديثة كضعف الحماية الأمنية وكسر الخصوصية وعدم التوجيه الفراغي للاتصال الاجتماعي ظهور بعض ردود فعل في الاتجاهات السكنية في بعض المدن السعودية لتوفير بعض المزايا المفقودة ولرفع مستوى النوعية السكنية.

وتتمثل هذه الظواهر في البحث عن السكن بمجاورة أناس مشابهين من ناحية الخلفية لضمان أقل حد من التوتر الذي يسببه التوجيه الفراغي الحديث. لذا نجد أن كثيراً من العوائل تشترك في شراء قطع أراضٍ متجاورة أو بلكة كاملة إذا كان عدد العوائل كثيراً والتي بالإمكان تسميتها «البلكات العائلية» أو «السكن العائلي المتشابك». وهذا يعبر عن الاتجاه الحديث في الاتصال الاجتماعي وهو قوة العلاقات مع العائلة والأقارب والتي تعوض عن ضعف العلاقات الاجتماعية وعدم الثقة بالآخرين بسبب التوجيه السكني في المخططات الحديثة (شكل١٨).

كذلك بعض الراغبين في البناء والذين لايجدون مشاركة بقية العائلة يبحثون عن أقرب موقع من بعض الأقارب أو الجماعة ذات الخلفية المشابهة لهم. هؤلاء يستوطنون في أحياء معروفة بارتباط سكانها بالمناطق التي قدموا منها. فمثلاً في مدينة الرياض تشكل هذه التكتلات السكنية غالبًا واحات أمنية معروفة لدى القادمين إليها والذين يشعرون أنهم سيجدون فيها شعورًا أمنيًا وراحة اجتماعية. كذلك بعضهم ينتقلون فيما بعد إلى مناطق مختلفة بعد سعة الاطلاع لبيئتهم الجديدة والاطمئنان للآخرين ومعرفتهم بهم. لذا نرى مناطق كثيرة في مدينة الرياض تحولت إلى أحياء مرتبطة بمجتمعات مختلفة حيث إن كل مجموعة في هذه الأحياء غالبًا ما تتشابه في الخلفية وخاصة المنشأ الجغرافي. فنجد مثلاً أهل الرياض في عليشة وسلطانة والفاخرية وأهل القصيم في الربوة والريان والروضة وأهل البادية في النسيم والنظيم. كذلك هذه المجتمعات تنقسم أحيانًا فيما بينها لتكون جيرات أكثر تقاربًا فيما بينهم بناء على المستوطنة التي قدموا منها أصلاً مثال أغلبية سكان حي الأمير عبدالله من البكيرية وحي السلام من أهل الخبراء وغيرها وهذه في الغالب من مدن صغيرة وقرى.

الاتجاه الآخر في البيئات السكنية من قبل القطاع العام هو إسكان كثير من الجهات الحكومية والشركات لموظفيها في وحدات سكنية معزولة عن بقية المساكن الخاصة من حولها بشكل «جيوب مجمعات سكنية» داخل المدن. هذه عادة تكون شققًا أو فللاً صغيرة معزولة عن محيطها بحوائط عالية وبوابات وحرس وغيرها، فمثلاً نجد في مدينة الرياض أكثر من ١٠٠ «جيب سكني». تلك المجمعات السكنية الحديثة تتراوح في أحجامها وأنواعها بحيث

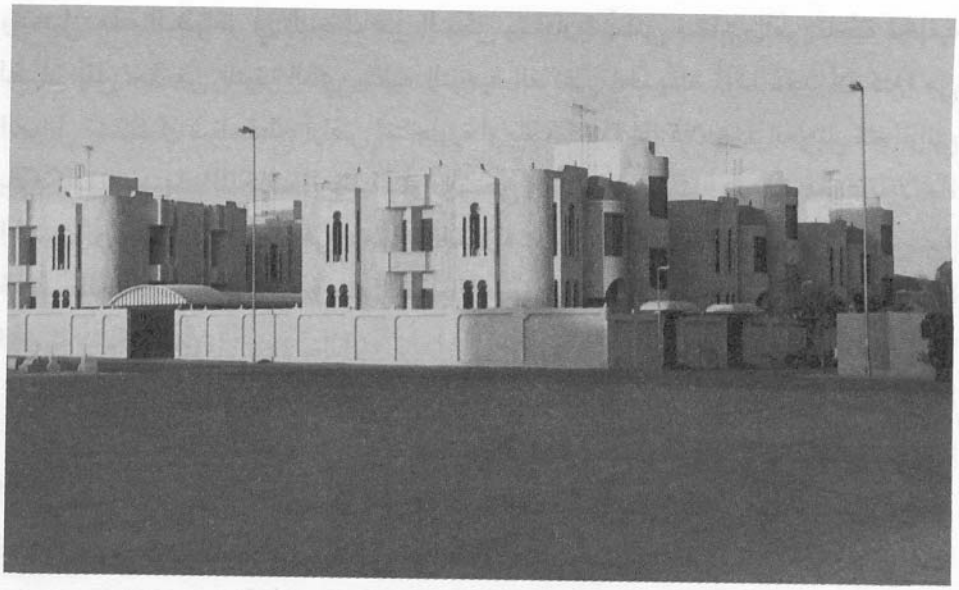

شكل ١٨. لقد شجعت طبيعة المخططات الحديثة ومشكلاتها على ظهور بعض الاتجاهات المختلفة. أحد هذه الظواهر هو انتشار «البلكات العائلية» أو «السكن العائلي المتشابك» وهذه تحدث باتفاق عائلتين أو أكثر على البناء داخل سور واحد والاشتراك في بعض الخدمات لأسباب أمنية واجتماعية.

إن بعضها يشكل شبه قرى أو مدن صغيرة متكاملة داخل النسيج العمراني للمدينة . فهي تحوي مزايا كثيرة ترفع من مستوى السكن لقاطنيها عن طريق تسهيل وتوفير جميع الخدمات وسبل الترفيه حيث إن بعضها يحتوي على مدارس ومساجد ووحدات صحية وأجهزة أمن وحدائق وملاعب أطفال ونوادٍ وأسواق وشبكات تلفزيون وغيرها . هذا يدعم اعتماد هذه الجيوب على نفسها واستقلالها خدميًّا واقتصاديًّا واجتماعيًّا وحضاريًّا عن بيئاتها المحيطة بها . لهذه البيئات فوائد خاصة بها لكن لها أيضًا مضار على نفسها وعلى المدن التي توجد فيها حيث إنها تدعم الإنعزال والطبقية في المجتمع وكذلك تكون نقاط عزل بين أحياء وعناصر المدينة مما يخلخل كيانها ويضعف ترابطها . كذلك بانغلاقها على نفسها تفتقر إلى الاحتكاك الحضاري الناتج عن عدم اتصال سكانها ببقية عناصر المدينة ومجتمعها . أغلبية هذه الجيوب السكنية تحوي صفوة أبناء المجتمع من أساتذة جامعات وأطباء ومهندسين وعسكريين وغيرهم من المثقفين الذين من الأجدى بهم أن يكونوا بذورًا إصلاحية داخل مجتمع المدينة . أيضًا من سلبياتها أنها لاتميز بين المجتمعات التي تسكنها هل هي متشابهة بالخلفية والاهتمامات والاحتياجات والرغبات أم هي مختلفة؟ حيث إنها قدمت من بيئات لاتتفق في المبادىء وطبيعة الحياة اليومية . هذا يعني أن نجاح السكن في هذه الجيوب السكنية يعتمد على مدى ربط نسيجها العمراني بدرجة التشابه والاختلاف بين السكان (شكل١٩) .

العوائق والمشكلات البيئية (الفراغية/ السلوكية)

يلاحظ أن مدننا وقرانا الحديثة تحتوي على عوازل بيئية تضعف العنصر الاجتماعي وهذا موجود على جميع مستويات المخططات الشبكية الحديثة، وتتراوح بين الصيغة العامة للمخطط وطبيعة الأحياء السكنية والشوارع والعلاقة بين العناصر المختلفة من منازل وغيرها . ويقصد بالعوازل هنا العوائق الجسمانية التي تحد من الاتصال الاجتماعي وتكوين الأنشطة ونبض الحياة، من تصنيفات وتوجيهات فراغية مثل: طول المسافات، وعرقلة اتصال المشاة من مكان إلى آخر، وتنفير حدوث تجمعات لعدم حمايتها من الطقس وحركة مرور السيارات . وتوجد كذلك هذه العوازل حول أغلبية عناصر المخططات الشبكية الحديثة فنجدها حول المنزل وفي الشارع وحول المسجد وحول الحديقة والأسواق وغيرها (شكل٢٠) .

شكل ١٩ . تقوم بعض المجمعات السكنية الخاصة ببعض الجهات الحكومية والشركات بتهيئة السكن المناسب الذي يوفر كثيراً من الخدمات المفقودة في المخططات الشبكية . فمثلاً نجد في مدينة الرياض عددًا كبيراً من هذ المجمعات التي بإمكاننا تسميتها «جيوب مجمعات سكنية» والتي في أغلبهـا تأوي صفـوة أبناء المجتمع من أساتذة جامعات وأطباء ومهندسين وعسكريين وغيرهم . هذه المجمعات لها أدوار إيجابية لكن لها سلبياتها أيضًا حيث إنها تشكل نقاط عزل داخل البيئة السكنية وتشجع على الطبقية والعزل وعدم الاحتكاك الحضاري بين طبقات المجتمع المختلفة .

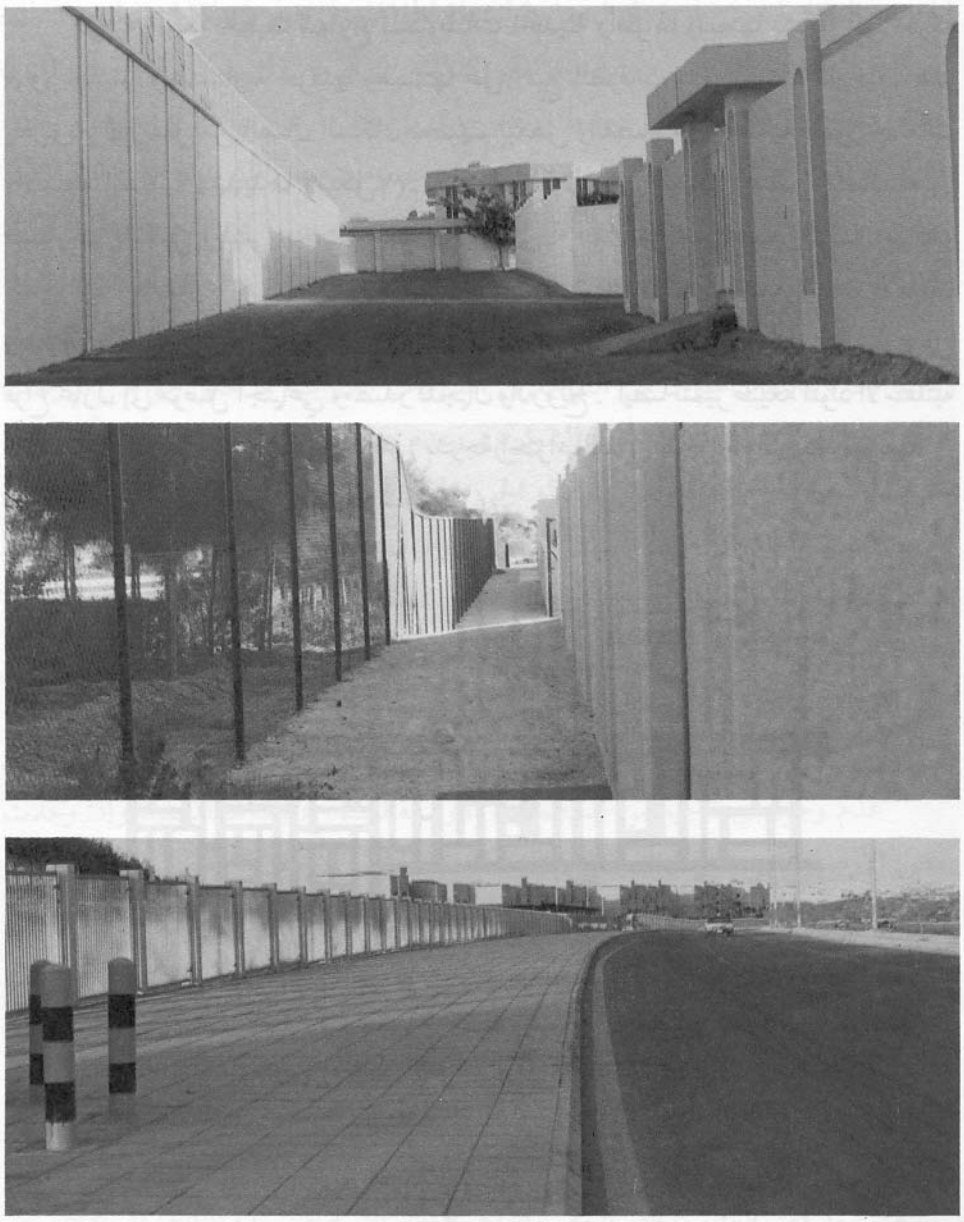

شكل ٢٠ . كثرة وجود وانتشار الحواجز والحوائط والأسوار حول العناصر المختلفة والعراقيل الأخرى تعزل وظائفها بعضها عن بعض وتقضي على مبدأ الشمولية وتعزز الانفرادية والذاتية في البيئة.

توجيه طبيعة تخطيط شوارع المستوطنات الحديثة وأطوالها وسعتها بشكل كلي لحركة مرور السيارة واستمرارية حركتها وهيمنتها على جميع الطرقات والفراغات الخارجية. هذا ينفر ويعزل ويقلل من اتصال السكان بعضهم ببعض والقضاء على إمكانية ظهور تجمعات وأنشطة إنسانية وتهديدها (شكل٧). كون وظيفة الشارع السكني عنصر اتصال لعبور السيارات بشكل وظيفي بحت حيث إن ٩٠ إلى ١٠٠٪ من مساحته لحركة ومواقف السيارات. فالشارع يجب أن يقوم بأدوار أخرى مثل توفير أماكن للتجمع ولعب الأطفال وتمدد أنشطة المنازل الخارجية والمشتركة إليه؛ والتواجد الخارجي للسكان وتحويل الشارع من فراغ عازل إلى موصل اجتماعي ومصدر للجمال والترويح. أيضًا تتميز طبيعة المواد الأسفلتية والأسمنتية المكونة لحيز الشارع الفراغي بدرجة اختزانها العالي للحرارة والبرودة وتحويلها إلى أماكن غير مريحة للتجمع أو المشي (شكل٢١).

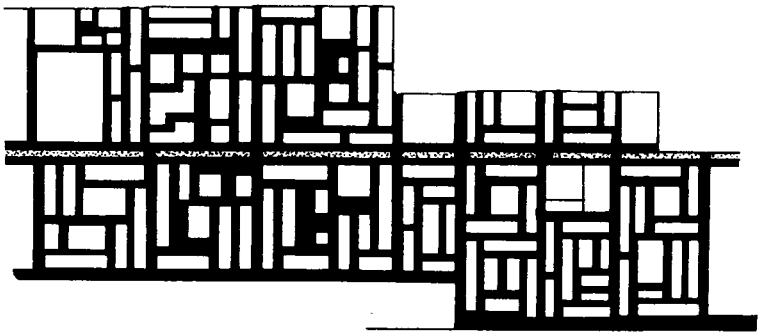

شكل ٢١. تقوم المخططات الحديثة عن طريق عناصرها من طرق وهيمنة حركة مرور السيارة عليها، وبقية تقسيماتها برفع مستوى العزل وضعف الاتصال بين السكان وتدمير العلاقات الاجتماعية وتكوين الأنشطة الإنسانية. هذا ينعكس على زيادة أطوال شوارعها وسعتها والمسافات بين عناصرها ونظمها.

عزل عناصر المنزل الداخلية من غرف وغيرها غالبًا عن بعضها بكثرة الحوائط غير الضرورية في بعض الأحيان. فنجد مثلاً أن أغلبية العناصر ـ إن لم تكن كلها ـ محاطة بأربعة حوائط ومغلقة بباب صغير. هذا العزل بين هذه العناصر بإمكانه أن يسبب بعض المشكلات النفسية وبعض المخاطر. حيث بالإمكان انفتاح واتصال المطبخ على صالة

الجلوس العائلي ليتسنى لربة المنزل متابعة أنشطة أطفالها بينما تقوم بأعمالها في المطبخ وكذلك سهولة التحدث والاتصال ببقية العائلة. كذلك المنزل معزول بشكل قوي عن المنزل المجاور له حيث نجد أنه محاط بحائط مرتفع جدًّا ويلي ذلك ارتداد من جميع الجهات بحيث يكون حزامًا فراغيًّا ميتًا لايستخدم بسبب كسر خصوصيته من قبل الجيران. أيضًا كبر مساحات القطع السكنية وفتحاتها التي تقوم باختراق الخصوصية المتبادلة وبعد أبوابها عن بعض واحتواء السيارة في الداخل واستخدامها في الدخول والخروج وانزواء جميع أنشطة العائلة في الداخل، دعم من عزل هذه المنازل بعضها عن بعض. هذا تسبب في انحسار روابط الجيرة وابتعاد الجيران من التواجد في الفراغات الخارجية مما خلق جوًّا من الإرهاب الاجتماعي حول هذه المنازل وخلو الشوارع، وعدم معرفة الجار لجاره مما هيأ مناخًا مناسبًا لحدوث الأعمال الإجرامية وتغريب أبناء الحي عن بعضهم البعض. كما يلاحظ أيضًا كثرة وجود الأسوار والجدران حول العناصر المعمارية وعزل بعضها عن بعض وحول المجمعات السكنية والحدائق والمنازل التي في الواقع لاداعي لبعضها. هذه الحوائط والأسوار تنفر من استخدام هذه الأماكن وتعبر عن رفضها للآخرين (أو المستخدمين) مثال ذلك الحدائق المعزولة عن المساكن المجاورة توحي لها بالجفا. (أشكال ٢٢، ٢٣، ٢٤).

عدم وجود أي توجيه من المسطحات الأرضية للشوارع وغيرها للمشاة وإذا وجدت بعض الأرصفة فهي مملوءة بالعراقيل بحيث تجعل المشي والاختلاط الخطر مع السيارات. وتتمثل عوائق حركة المشاة في غالبية الطرقات من تفاوت مستويات وحفر وأحواض أشجار وأعمدة خدمات وعدم حمايتها من الشمس وينفر بعض الناس من المشي ومحاولة استخدام السيارة مهما أمكن. هذه بعض العوائق الجسمانية التي تعمل ضد ترابط البيئة السكنية والتي بدورها تحد من استمرارية الحركة والاتصال بين السكان.

ويمثل فقدان الاهتمام بمراكز التجمعات مثال مراكز المخططات ومراكز الأحياء والجيرات أحد أهم العناصر التي أثّرت سلبيًّا في العزل الاجتماعي والحضاري للسكان. إن ترسيخ هذه الفراغات العمرانية من شأنه تقوية العلاقات الإنسانية والثقافية وتدعيم العادات والتقاليد والنظم الاجتماعية. أيضًا تقسيم الطرق الشريانية والسريعة لبعض المدن

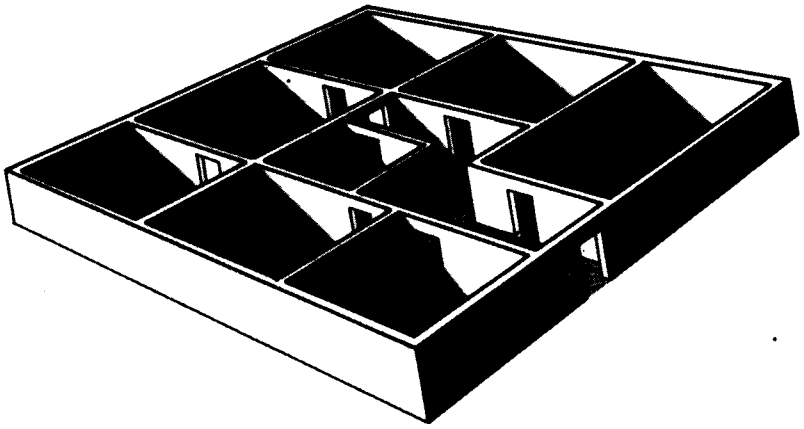

شكل ٢٢ . تبدأ طريقة العزل بين السكان في المخططات الحديثة في طريقة التصميم الداخلي للمنزل. فيلاحظ داخل المنزل كثرة الحوائط والعوازل الجسمانية التي تخلق بعض المشكلات الجسمانية والنفسية وكبت الحرية . مثال ذلك عزل المطبخ وربة البيت داخله عن بقية الأسرة وخاصة أطفالها مما يسبب صعوبة الاتصال البصري والصوتي . أيضًا عزل الشباب والأبناء والبنات في ملاحق أو أجنحة خاصة بهم يفوّت عليهم فرص احتكاك مهمة لصحة الجميع وثقافتهم .

وعـزل بعض أجزائها عن بعض وعدم وجود جسور أو أنفاق اتصال ملائمة للمشاة أثر بطريقة سلبية على تماسك النسيج الاجتماعي والحد من الانتقال بينها بسهولة (شكل٢٥) .

لقد أثبتت العمارة والمخططات الحديثة فشلها في التجاوب مع طبيعة سلوكيات وعادات المجتمـع السعودي . حيث إن لكل نسيج عمراني أهدافه ونظمه التي لها تأثير معين على أنشطة وعلاقات ساكنيه . والبيئة العمرانية الحديثة في المملكة لها آثارها الإيجابية من الناحية الـوظيفية والخدمية لكن لها سلبيات كثيرة على النسيج الاجتماعي ونمو الإنسان الصحي والنفسي والعقلي والثقافي والحضاري .

الخـاتمـة

تأسس المجتمـع السعـودي منـذ شروق الإسـلام في الجزيرة العربية على مبادىء اجتماعية نابعة من مؤثرات فطرية وطبيعية وأيكلوجية صالحة لكل زمان ومكان والتي دونها

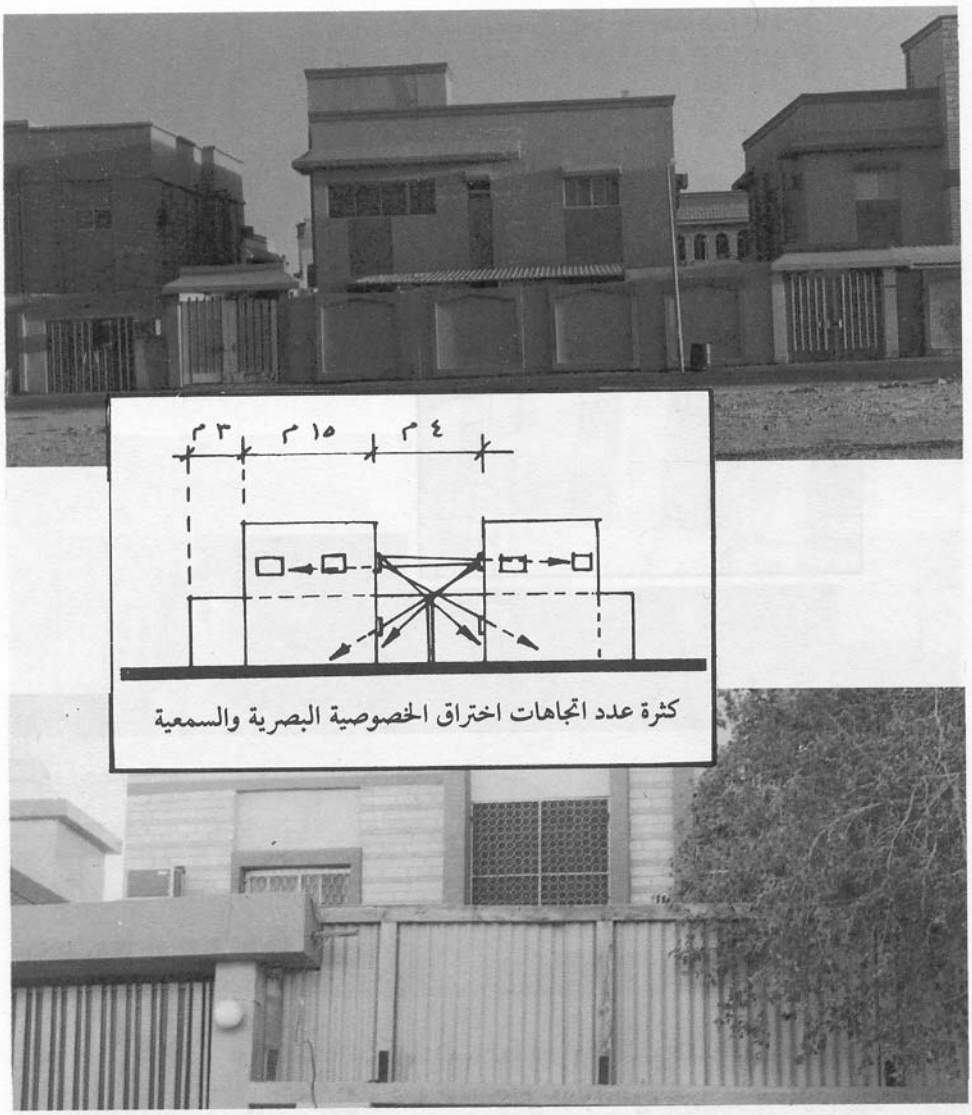

شكل ٢٣ . كذلك يوجد عزل قوي بين المنازل بطريقة خاطئة تقلِّل من فرص اللقاء بين الجيران ومن ثم إضعاف علاقاتهم ببعض وينتج عن ذلك سلبيات كثيرة. هذا العزل يتكون بسبب نظم البناء بوجود حوائط مرتفعة وفراغات ميتة بين المنازل من جميع الجهات (ارتداد) وكبر حجم القطع وشبابيك المنزل التي تقوم بالاختراق المتبادل للخصوصية وطريقة الدخول والخروج من المنزل بالسيارة.

شكل ٢٤. من أهم ردود الفعل لفشل أنظمة العمران والتصاميم العمرانية الحديثة انتشار الطرق المختلفة لحماية خصوصية السكان داخل المنازل من الجيران وذلك برفع الحوائط وسد الشبابيك والبلوكات بطرق مشوهة. كذلك البعض الذي لم يعمل ذلك يكتفي بترك الستائر مسْدلة دائمًا. هذا العمل يكون له مردود سلبي على السكان داخل المنزل ومع الجيران. حيث إن هذه الطرق تحول المنازل إلى ما يشابه السجون لتصبح مكبوتة من الضوء الطبيعي الكافي وصعوبة التواجد في الفراغات الخارجية لكشفها مما يولد أمراضًا نفسية وصحية متعددة. أيضًا وجود هذه الحواجز والتعابير بين الجيران تولد الحزازات والجفا والقطيعة والرفض.

شكل ٢٥ . يتعرض المشاة يوميًا لكثير من المعاناة في كل مرة يمرون فيها على طرقات وأرصفة المخططات الحديثة مما يضطرهم في كثير من الأحيان إلى الاندفاع المفاجىء والاختلاط الخطر مع السيارات.

وفسرهـا ورسخها القرآن الكريم. وهذه المبادىء مازالت باقية وشامخة في نفوس كثير من السكان على الرغم من التحديات اليومية التي تجابهها وأمثلة على ذلك التعبير الفراغي لحماية الخصـوصية والـترابط الاجتـماعي وحقوق الاستخدام الفراغي الخاص والعام والنواحي الإنسانية الأخرى.

لقد أصيب النسيج الاجتماعي ببعض التصدع تحت وطأة موجات التحضر السريعة والعارمة التي جلبت معها مبادىء ومنتوجات استهلاكية مستوردة عصفت بالبيئات المحلية التي استبدلت بالمخططات الجديدة وعناصرها. وتعتبر المخططات الحديثة من أهم منتجات السوق العالمية (الغربية) التي أثّرت في أسلوب حياة السكان في المملكة العربية السعودية. فلقد ساعد التغير الاقتصادي المفاجىء إلى سرعة وكثافة انتشارها بشكل مكرر مع عدم تأثرها باختلاف البيئات من مواقع جغرافية ونظم اجتماعية وعادات وتقاليد. هذه أيضًا لم تتجاوب مع احتياجات فراغية ـ إنسانية أساسية من شأنها أن تدعم أي مجتمع كما سبق ذكره.

أنـه بإمكاننا تصور وصياغة البيئة الفراغية بطريقة إيجاد لغة عمرانية تتجاوب مع النواحي الإنسانية للمستخدمين وبتوجيه من أهداف محددة وواضحة وممثلة لجميع أنواع وتعقيدات السلوكيات المتـداخلة المتـوقعـة لأنـواع السكـان المختلفة. هذه اللغة تشمل المفـردات والتعبـيرات الفـراغية الشخصية والخـاصة والعامة والمحلية والإقليمية والوطنية والعالمية ـ الإنسانية. وكل ما كانت هذه اللغة واضحة ومعبرة عن اهتمامات مستخدميها على جميع المستويات رفعت من المستوى النوعي لمعيشتهم وشجعت على نمو وترسيخ مبادىء حضارية وجوهرية، بينما أنه كلما كانت اللغة الفراغية مشتتة وغير واضحة وصعبة التمييز فإنها تعيق وتضعف وتضلّل الأداء الوظيفي لعناصرها المعمارية وتزيد عناء مستخدميها مما يفقدها بعض معانيها المهمة مع مرور الزمن. فالملاحظ الآن في البيئة السعودية الحديثة أننا تدريجيًا فقـدنا المعاني والمفاهيم البيئية الأصيلة والجوهرية لكل من المنزل والفناء والمسجد والمتجر والمدرسة والشارع والساحة والتي أصبحت مجرد أماكن شكلية ووظيفية.

لو لاحظنا الأنظمة والعناصر المكونة للأنسجة العمرانية التقليدية في مستوطنات الجزيرة العربية الصحراوية التي خططت وصممت ونفذت من قبل مستخدميها بشكل كامل لوجدنا أنه تجمعها لغة عمرانية متشابهة مع العلم أن بعضها صمم بمعزل عن البعض الآخر. حيث نجد أن مستوطنات مثل الفاو والربذة والرياض وعنيزة والخبراء وعيون الجوا أو غيرها تبرز لغة عمرانية نابعة من طبيعة سكانها كالتدرج الفراغي ـ السلوكي والخصوصية الفراغية والنطاقية وتصاميم المساجد والأسواق عن طريق الاستمرارية في المحافظة عليها وتطويرها عبر تجارب الأجيال والحضارات المتتالية.

إن المفردات العمرانية المختلفة مثل المنزل والمسجد والمتجر ومكان العمل والمدرسة والحديقة والشارع والساحات والمراكز الحضارية وغيرها بإمكانها أن تشكل منظومة بيئية ـ اجتماعية مترابطة وشاملة ومكملة لبعضها البعض. حيث إن أنماطها ونظمها تلعب دورًا رئيسيًّا في تدعيم وترسيخ النسيج الاجتماعي والعادات والتقاليد الصحيحة والصحية. أيضًا تتشابه كثير من المفردات الفراغية في المستوطنات الإنسانية المختلفة من حيث الوظيفة، لكنها تختلف في النواحي الحضارية ـ السلوكية والذي بدوره يميز بيئة عن أخرى ويعطيها شخصيتها المحلية. فمثلاً أهداف ووظائف الشارع في المملكة تختلف عنها في أوروبا وأمريكا واليابان والصين وأفريقيا وغيرها. (شكلا ٢٦، ٢٧).

تقوم هذه اللغة ومفرداتها العمرانية بتوجيه وتنظيم الوظائف والأنشطة الفراغية المختلفة بناءً على المبادىء المذكورة في هذا البحث. أيضًا بالإمكان تطوير واستخدام أساليب مختلفة ومتعددة لتكوين وصياغة أسس عمرانية لتسهيل عملية التخطيط والتصميم البيئي. فمثلاً بإمكاننا تدعيم النظم الفراغية ـ السلوكية عن طريق استخدام تدرج في نسبة تشخيص وتخصيص العناصر الفراغية حسب نوعية وعدد المستخدمين بحيث إنه كلما قل العدد كلما كانت أكثر شخصية والعكس أنه كلما زاد عدد المستخدمين كلما كانت أكثر عمومية. يقصد هنا بالتشخيص هو حق المالك في درجة التحكم في التعبير الفراغي لمكان ما بحيث إن المنزل يكون أكثر خصوصية وتشخيصًا لسكانه بينما يقل التشخيص عندما نتدرج إلى العناصر الأخرى مثال الشارع والمراكز الحضارية وما بينها حيث يزداد ويتنوع

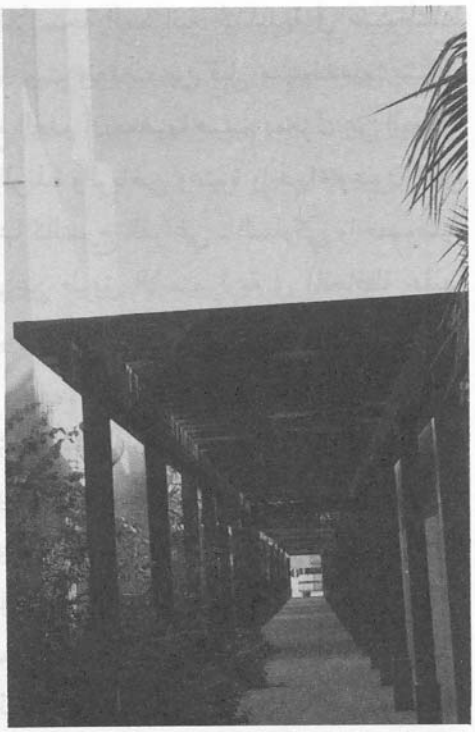

مسجد حي الخارجيـة

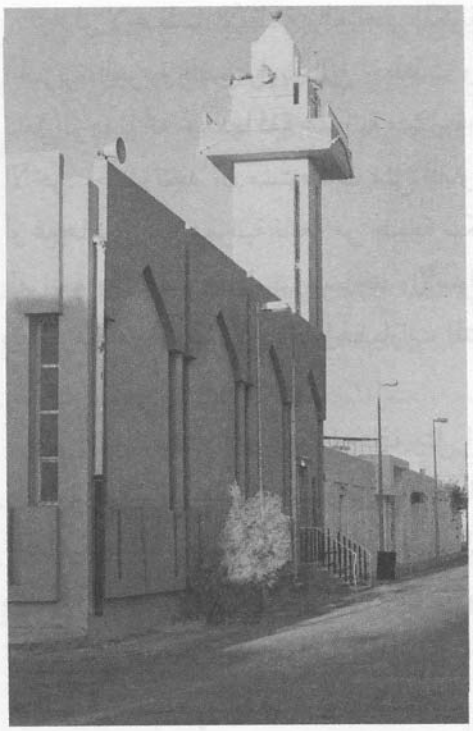

مسجد من أحد الأحياء الشبكية

شكل ٢٦ . يشكـل المسجـد عنصرًا مهمًا في حياة سكان الحي من الناحية الحسية والمعنوية في الترابط الاجتماعي والانتماء. لذا نرى هنا مثالين من المساجد أحدهما ينتشر بشكل مكرر في جميع الأحياء السكنية الشبكية الحديثة بينما الآخر يوجد من حيث الفكرة في المستوطنات التقليدية والإسكان الخاص كما في حي موظفي وزارة الخارجية في الرياض. في المسجد الأول نلاحظ انعـزاله عن الحي واعتماده على مصلين من خارج الحي وإحاطته بحركة المرور والإزعاج وعدم وجود فراغات انتشار ولقاء المصلين بعد الصلاة مما يخلق جوًا مزعجًا للمصلين وعدم أدائه دوره بين الجيران. بينما المسجد الآخر في سكن وزارة الخارجية يتعاضد المسجد مع المساكن عن طريق اتصاله بطرق مشاة لها محمية من الطقس وحركة المرور مما يكون جوًا من الهدوء والطمأنينة والروحانية تنعكس على المصلين الذين غالبًا من سكان الحي. هذا النوع الآخـر بإمكانه تدعيم علاقات الجيران وتهيئة البيئة المناسبة للاختلاء بالنفس والتعمق في التفكير التجاوزي والابتعاد عن القشور والمشكلات الدنيوية لتجديد الروح.

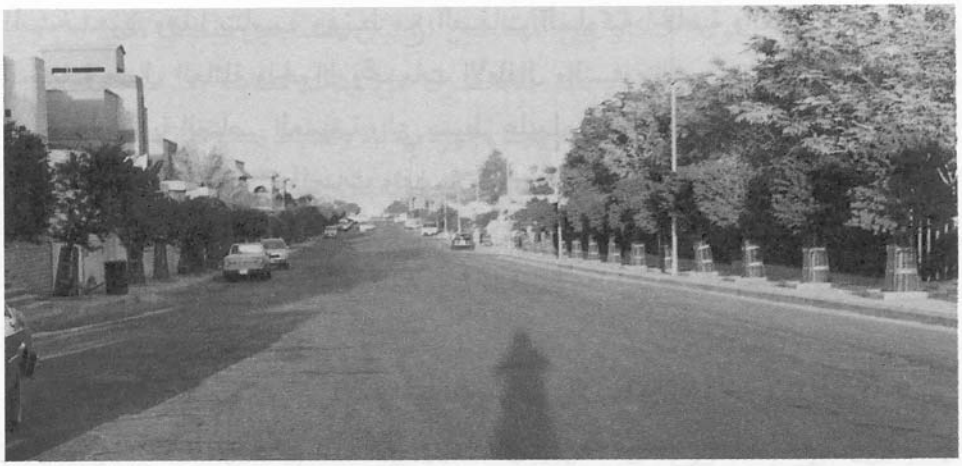

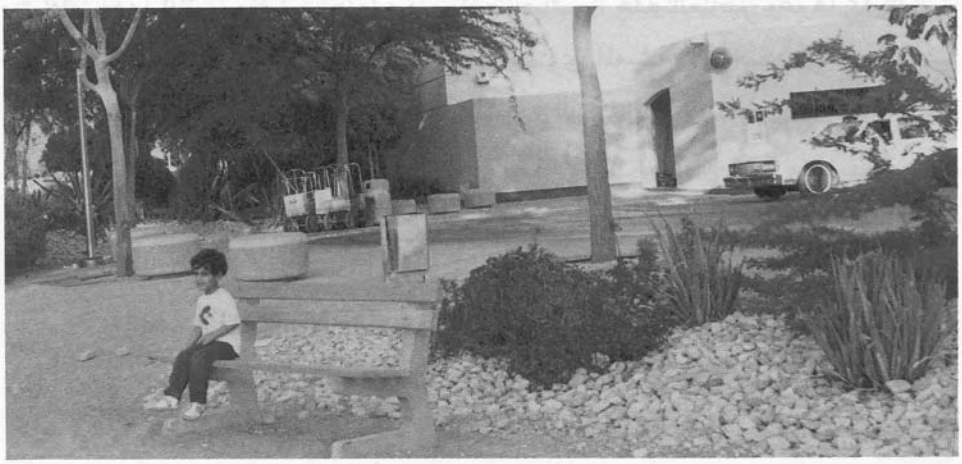

شكل ٢٧ . تشكل الحديقة عنصرًا حديثًا إيجابيًا بالإضافة إلى عناصر أخرى بالنسبة للمفهوم البيئي لدى المواطن السعودي. لكن يتفاوت دورها الاجتماعي ـ الترفيهي حسب تصميمها بمحيطها. فمثلاً نلاحظ أن حدائق المخططات الشبكية الحديثة عادة تكون محاطة بشبك وبنظام حركة المرور الذي يحولها إلى جزيرة معزولة عن اتصالها بالسكان المحيطين بها مما يقلِّل ارتباطهم بها واستخدامها غالبًا من قبل سكان من خارج الحي (أ). لكن نلاحظ في بعض الأحياء الحديثة الخاصة مثال حي موظفي الخارجية التحام الحديقة بالمنازل بطرق مشاة وعدم وجود أي عازل بينها وبين المنازل مثال شارع أو شبك مما جعلها متنفسًا مهمًّا لسكان الحي مع تقسيمها بعدالة فراغية لجميع الأعمار والأجناس (ب). كذلك حديقة الخارجية تكون منظرًا جميلاً للمنازل المحيطة مع تلطيف محيطها بالهواء البارد.

المستخـدمون وهذا يتناسب ويرتبط مع الصفات السلوكية الخاصة والعامة للمجموعات المختلفـة مثـال العائلة والجيران وتجمعات الأطفال والنساء والشيوخ وغيرهم. أيضًا تمثل المراكز الحضارية العناصر العمومية والتي يسيطر عليها مزيج من التعابير الفراغية والتي تكون أقـل تشخيصًـا وتعكس تطلعـات وتفضيلات جميع المستخـدمـين حسب مركزها المحلي والإقليمي والـوطني والعـالمي، حيث تمتـزج هنـا اتجـاهات ومحاور أنشطة جميع الطبقات الاجتماعية بمستوياتها الاقتصادية والحضارية المختلفة.

إن استخـدام كثـير من المفـردات العمرانية والإنسانية الجديدة في بيئتنا كالحدائق والمواقف والمكتبات والمطاعم والمتاحف والمعارض وغيرها ستصبح تقليدًا مع الوقت يتعود ويتـأقلم معها الناس وتصبح جزءًا من برنامج حياتهم. هذه العناصر وغيرها مما يناسب أهـدافنـا الحضـارية سيكـون لها تأثير في رفع مستوى المعيشة إذا أحسن توجيهها فراغيًّا بالإضافة إلى ما سبق توضيحه عن المسكن والشارع السكني.

البعد الآخر هنا هو محاولة الدمج والتوازن بين هدفين في البيئة العمرانية وهما الهدف الجـوهـري والـوسيلي. حيث إن الفـراغ الجـوهري يركز على النواحي الرمزية والعاطفية والأصيلة والمحلية والفطرية والاجتماعية والشمولية وغالبًا ما يكون في المستوطنات التقليدية. بينما الفراغ الوسيلي يركز على النواحي الوظيفية والاقتصادية والانفرادية والشكلية وغالبًا ما يكون في المخططات الحديثة. في حالة اختلال ذلك التوازن تخرج عندنا بيئات منحازة إما للوسيلي كما في المخططات الحديثة أو للجوهري كما في التقليدية. فنحن بحاجة إلى حماية نظمنـا الاجتماعية والعادات والتقاليد عن طريق تدعيمها فراغيًّا حتى لاتتصدع وتنسلخ وتندثر كما نحن في حاجة إلى المحافظة على رفع مستوى الخدمات ووسائل اتصالها بنا لتكون سبيلنا إلى التطور بمصاحبة معنوياتنا ومعاني حياتنا.

أيضًا يجب أن نحاول إضفاء صبغة الشمولية على البيئات السكنية وهذا ما يتطلب التكافل بين الاختصاصات المختلفة التي تؤثِّر في التعبير الفراغي مثال الاقتصاد والاجتماع والعـمارة والتخـطيط والهنـدسة وغيرها. حيث إن المخططات السكنية في الوقت الحاضر

وخاصة في المملكة تكون احتكارًا على المهندسين المدنيين والمساحين وبعض المعماريين وفي حالات نادرة المخططين (الأجانب). فللحصول على بيئات مطابقة ومدعمة لهذه البيئة السعودية لابد من تغيير مضمون ومستويات أجهزة وإدارة وتخطيط مستوطناتنا. كذلك يجب أن يكون توجيه المخططات على مستوى يواكب أهميتها مثال إيجاد لجان عليا متخصصة بدلاً من الوقت الراهن حيث إنها تعمل من قبل أشخاص ليسوا أكفاء.

لذا فبالإمكان استخدام البيئة السكنية عن طريق نسيجها العمراني وعناصرها المعمارية كوسيلة لتبني سلوكيات معينة حسب أهداف محددة بهدف إيجاد المجتمع الذي نصبوا إلى تكوينه بناءً على مبادىء التوجيهات الدينية والعادات والتقاليد المكتسبة ومتطلبات البيئة الطبيعية. فمثلاً من خلال التوجيه الفراغي لعناصر المخططات نستطيع أن نؤثّر على سير الوضع الأمني والتقليل من الجريمة وتقوية الاتصالات الاجتماعية مع المحافظة على خصوصية السكان. كذلك بإمكاننا إيجاد وتشجيع أنواع من الأنشطة مع المحافظة على العدالة الفراغية للذكور والإناث والأطفال وكبار السن والتنسيق بينها، وتنفير السلوكيات غير المرغوبة. لقد كان يوجد كثير من السلوكيات والعادات الأصيلة بين الرجال والنساء والأطفال والتي عاشت بالوراثة بين الأجيال والحضارات المختلفة وترعرعت بسبب احتضان النسيج العمراني التقليدي لها. لكنها اندثرت وفقدت عندما انتقل السكان إلى المخططات الحديثة التي جردت مستوطنيها من كل ذلك مما تسبب في التغرب عن شخصيتهم وكثرة المشكلات الاجتماعية والأمنية. طبعًا هذا التغير البيئي ليس المؤثر الوحيد لما حدث إنما شارك في ذلك بشكل كبير مع المؤثرات الحضارية الأخرى.

المراجع

[١] Al-Nowaiser, M. "Traditional and Modern Settlements in Saudi Arabia." *Habitat International*, 9 No. 1 (1985).

[٢] Sommer, R. *Personal Space*, Englewood Cliffs, New Jersey: Prentice-Hall, Inc., 1969.

[٣] Festinger, L., Schacter S., and Back, K. *Social Pressures in Informal Groups*. Stanford. CA: Stanford University Press, 1963.

[٤] Al-Nowaiser, M. "The Conceptual Role of the Built Environment on Environmental Experience

in Central Saudi Arabia." *Journalof Architectural and Planning Research,* Locke Science Publishing Company, 4, No. 3 (Sept., 1987).

[٥] Stokols, D. *etal., Handbook of Environmental Psychology,* Vol. 1, 2, N. Y.: John Wiley and Sons, 1987.

[٦] Cantor, D. *Psychology for Architects.* New York: John Wiley., 1975.

[٧] Altman, I., Rapoport, A., and Wholwill, H. *Human Behavior and Environment, Advances in Theory and Research,* Vol. *4, Environment and Culture, N. Y.:* Plenum Press, 1980.

[٨] Altman, I. and Cehmers, M. Cultural Aspects of Environment Behavior Relationship. In: Triandis, H. and Brislin, R. (Eds.), *Handbook of Cross-Cultural Psychology,* Vol. IV, N. Y.: Allyn and Bacon, 1980.

[٩] Moss, R. Conceptualization of Human Environments. In: Proshansky, H., Ittelson, W., and Rivlin, L. (Eds.), *Psychology: People and Their Physical Settings.* New York: Holt, Rinehart and Winston. 1976

[١٠] Rapoport, A. Cross-Cultural Aspects of Environmental Design. In: Altman, I., Rapoport, A., and Wohlwill J. (Eds.), *Environment and Culture.* New York: Plenum Press, 1980.

[١١] Gropuis, W., *The Hew Architecture and the Bauhaus. M. I.* T., 1965.

[١٢] Hitchcock, H., and Johnson, *O., The International Style, New* York, 1966.

[١٣] Sennett, R. "Brutality of Modem Families." *Transaction, 7,* (1970),29-37.

[١٤] Nolte, Richard. *A Tale of Three Cities: Dhahran, Riyadh, Jeddah. American Universities Filed Staff Reports Southwest Asia Series, Vol. XX. No. 1* (August, 1977.)

[١٥] Peasron, Paul. *Alver Aalto and the International Style. New* York: 1978.

[١٦] Bucks County Planning Commission., Performance Streets. United States, 1980.

[١٧] Appleyard, D. *Livable Streets.* Berkeley: University of California Press, 1981.

Substantive Principles for the Saudi Built Environment

Mohammed A. Al-Nowaiser
Assistant Professor, College of Architecture and Planning,
King Saud University, Riyadh, Saudi Arabia

Abstract. Built environment patterns play different roles in influencing user behavior based on the context under which they operate. They attempt to coordinate between certain environmental, social, economic and change forces on their inhabitants.

The enviommental perception and actions of users, based on their environemntal knowledge in the form of spatial symbols, statements and concepts, have been dynamic, fluctuating and sometimes unpredictable. Such physical language has been mainly generated through historical processes in which different generations have contributed to its advancement through trial and error. Therefore, it is important to understand and identify certain place types and features of greatest influence.

Spatial identities and characteristics have been categorized mainly into two types, substantive and instrumental (Alnowaiser 19851987). These terms are meant to capture the meaning of two types of spatial qualities with respect to human behavior. These substantive qualities are rooted in their associated cultural and environmental systems. These include symbolic, authentic, social, communal, organic and ecological spatial contexts. The instrumental place types have emerged recently from the phenomena of materialism, consumption habits, individualism and economic **efficiency.** This includes functional, unauthentic, profane, materialistic and individualistic places. Therefore, substantive spatial quality has a much more positive impact on environmental quality of life than the instrumental one.

The emergence of either substantive or instrumental place qualities or a mix between is dependent on our perception of the built environmental functions and meanings. Thus, the more accurate, and correct, our image and the greater awareness we have about our spatial elements and systems, the more substantive contexts we would produce. While the more distorted our perceptions with a lack of an appropriate environmental knowledge, the more distant we become from expressing our real spatial needs. The latter effect would be manifested into places, features and use which result in instrumental contexts. Various spatial elements such as dwellings, streets, parks, stores and others individually, and in the entirety, can affect the overall behavioral systems of people. We can arrange them to their optimal possible functional, meaning and symbolic dimensions in which important behavioral streams can flourish. These include communality, and cultural and knowledge exchange, which will create more sociable and hospitable human environments.